الدورة القرائية ٣١

كتاب

أفي النبوءة شك؟!

د. سامية بنت ياسين البدري

ملخص المقدمة

إعداد مركز رسيل للاستشارات التربوية والتعليمية

https://kkitab.com

Katib_Kitab

بداية الرحلة

وجد الإنسان في نفسهِ ضرورةً مُلحة للبحث عن إجابةٍ للأسئلة الوجودية الكُبرى، مثل: السؤال عن ماهية العالم والإنسان؟ وكيف بدأ الخَلق وكيف ينتهي؟ وما هي صفات خالقِ هذا الكون العظيم؟

وللإجابةِ عن هذه الأسئلة نكون بين أمرين لا ثالث لهما:

الأول:

أن اللّه -سُبحانه- تركَ خلقهُ سُدىً ولم يبيّن لهم الطريقَ إليه، وهذا غيرُ معقولٍ ومحالٌ تصوّرهُ.

الثاني:

أنَّ اللّه -سُبحانه- بيّن لهم الطريق إليهِ بأقوى الأدلـةِ والبـراهين التـي لا يُخالطها الشك، وهذا أمـرٌ معقـولُ ويمكـن تصـوُّره، وهـذا الطريـقُ هـو طريقُ الأنبياء والرسل -عليهم الصلاةُ والسـلام- الـذين بعـثهم اللّـه عـز وجل إلى الناسِ ليعرفوا ربهم وحكمهُ وشرعه، وجعلَ لهذا الطريقِ دلائلاً على صحتهِ وسلامته؛ فأيَّد أنبيـاءه بالآيـاتِ تصـديقًا لهـم، وأحكـمَ الـدين وأكمل الشريعة لتكونَ دليلاً على كمالِ مُشرِّعها -سُـبحانه-؛ فمـن عـرف بأن لهذا الكون خالقًا لزم أن يعرف بأنهُ آمرٌ وناهٍ على خلقهِ، فالتألهُ لـيس مقتصـرًا عـلى الخلـق والتـدبير، وإنمـا يشـمل التشـريع والحكـم أيضًـا، فالتديُّن والخضوعِ للإلهِ المعبود يُشبع حاجةً بشريَّةً فطرية.

لقد دلَّ القرآن الكريم على صدقِ نبوةِ النبي محمد ﷺ باستحالةِ صدورِهِ منه، لأن ثبوت الدين قائمٌ على ثبوتِ النبوءة وعليهِ؛ فكان لزامًا أنَّ نبيَّن هذه الدلالات، **وهنا مسألتان:**

- **الأولى:** البرهنة على إمكانِ النبوَّءة.

- **الثانية:** البرهنة على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ، واستحالة أن يكون القرآن منه، والمسألة الثانية متضمنة للأولى؛ إذ كيف أبرهن على صدق النبوءة ما لم تكن ممكنة.

مقدمات أساسية

أولاً

أهمية البحث:

كل مسألةٍ من مسائل الدين الإسلامي قد قامت الأدلـة العقليـة والنقليَّة على صحتها لتقـوم الحجـة، ويكـون التسـليم لـدين اللّـه قائمًا على البراهين التي لا تدع مجالاً للشك، ومـن أعظـمِ الأدلـةِ على مسألةِ صدق نبوءة النبي محمـدﷺ القـرآن الكـريم، حتـى أن غير المسلمين يجدون فيهِ مصدرًا هامًـا للبرهنـةِ عـلى نبوءتـه ﷺ، الأمر الذي يعد فريدًا في تأريخ الأديان.

فدلالة القرآن على صدق النبي ﷺ وأنهُ وحيٌ من الله تعالى أيّد بـه نبيه ﷺ لا تتوقف على أدلة خارجة عنه على ضرورتها، بل هي دلالة ضمنية على أنه من عند الله عزوجل، فهو بهذا الـدليل والمـدلول معًا، ودلالة التضمن من أقوى الدلالاتِ فهي قطعيـة يقينيـة، لأن الدليل هو المدلول، وإذا انتفت المغايرة بـين الـدليل والمـدلول استحال الشك في الدليل، بخـلافِ دلالـةِ الاسـتلزام التـي يُمكـن القدح فيها من جهة الشك في نسبة التلازم بين أمـرين متلازمـين لحصول المغايرة بينهما.

وتكمن أهميةُ البحثِ في مسألة دلالةِ القرآن على صدق نبوءة النبي ﷺ

أن تقريرها هو عماد الدين وأصلُ الدعوة، كونها طريق النـاسِ لمعرفـةِ ربهـم بأسمائهِ الحُسنى وصفاته العُلى، ومعرفة شـرعهُ وحُكمـه، والجـزاء المترتـب على عبادته وطاعته، فهي مـن أهـم مسـائل الـدين كونهـا تُجيـب عـن أسـئلة الوجودِ والغاية، ومن ضلَّ في هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب.

ثانيًا

الكتابة في أدلة صدق النبوة ضرورةٌ ملحة

إنَّ الكتابات في مسألة النبوّات هي بين مد المنهج المعرفي العقلاني، وجزر المنهج العرفاني الكشفي؛ فأصحاب المنهج المعرفي العقلاني هم المتكلمين الذين تولوا الرد على ملاحدةٍ ينكرون النبوة من غيرِ تأصيلٍ شرعيّ مبنيٍ على أدلة العقل والنقل؛ فظهرت بعض المصطلحات التي لم ترد في الوحيين ولم يقل بها سلف الأمة، بالإضافةِ إلى الخلل المعرفي والمنهجي والمفاهيمي في الاستدلال على مسائل العقيدة والمتمثل في معارضة العقل للنقل، متأثرين في ذلك بكتب الفلسفة اليونانية المترجمة، فحصر بعضهم أدلة النبوة على الآية المحسوسة (المعجزة) وأنكر ما عداها، وإن كانَ لهم جهودٌ تُذكر فتشكر لكن الخلل المعرفي عندهم جعل تقرير مسألة النبوة من خلال أدلتهم أمرًا غير ممكن.

كما يمثّل هذا المنهج المتأثرين بالمنهج الغربي المادي التجريبي القائم على أنَّ المعرفة تكون عن طريق الحس والمشاهدة فقط، وبالتالي فأمور الغيب -ومن ضمنها النبوات- ضربٌ من الأساطير لأنها لا تُدرك بالحس والمشاهدة، وقابلَ هؤلاءِ بعضٌ ممن طبق الجانب العلمي التجريبي للمكتشفات الحديثة للاستدلال على النبوَّة وهذا المنهج فيه خللٌ معرفيّ يعارض تقرير مسألة النبوة.

وهناك من حاول تطبيق المنهج العقلي المادي النقدي على القرآن الكريم محاوِلاً إعادة قراءته وِفق ما أسموه أرخنة وأنسنة النص؛ ليصبح الإنسان معيارًا لكل شيء، وهو منهج يُنكر إلهية القرآن الكريم، وينكر النبوات عمومًا، وهو نفسه منهج الكفار والمشركين ممن أنكروا نبوءة النبي ﷺ قديمًا، مع اختلافٍ في المنطلقات الفكرية بين الفريقين.

إضافةً إلى الأدبيات الجدليَّة الاستشراقية التي قدمها رجال اللاهوت النصراني واليهودي من خلال دراساتهم لترجمة القرآن وسيرة النبي ﷺ القائمة على إنكار ألوهيَّة القرآن الكريم لمعارضته عقائد اليهود والنصارى المحرَّفة، وبالتالي فلا يُمكن -بزعمهم- أن يكون محمد رسولٌ من عند اللّه عزوجل، وأصبحت هذه الأدبيات أنموذجًا لأدبيات حداثيي العرب ومن شابههم.

أما المنهج العرفاني الكشفي فقامَ على الخرافةِ والدجل من خلال الاستدلال بالروايات الموضوعة؛ فالنبوءة عندهم مكتسبة ومستمرة؛ فلا يسلمون بحقيقة أن النبي محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء.

فالكتابة في النبوءات نشأت بين كتاباتٍ لم تُبنَ على منهجٍ معرفيٍّ سليم، وأخرى كانت تتعمد محاربة الإسلام والتشكيك في مسائله، أو الخروج من دائرة الشرع عمومًا تحت مسمى التنوير العقلاني.

الفصل الأول

النبوءة المفهوم والدلالة

المبحث الأول

التعريف بمفهوم النبوءة والدليل

المطلب الأول

مفهوم النبوءة (التعريف - الدلالة - النشأة)

أولاً:

بين النَّبأ والنبا:

في اشتقاق (النبوءة والنبي) في اللغة قولان:
الأول: أنه من نبأ بالهمز وهو الخبر، والثاني: أنه من نبا نبوة ونباوة - بدون همز- وهو من الرفعة والعلو، والأظهر أن النبي مأخوذ من الإنباء أي: (الإخبار عن اللّه تعالى)، لا من النبوة (الرفعة والفضيلة).

وذلك للأسباب الآتية:

١

إجماع العرب على أن أصل اشتقاق كلمة النبي من (نبأ) بالهمز.

٢

كلمة النَبَأ -بتخفيف الباء- وردت في القرآن بمعنى الخبر الذي به فائدة عظيمة يحصل به العلم، وكلمة نَبَّأ -بتشديد الباء-تنبه على تحقق الخبر ووقوعه من قبل الله، وهي أبلغ، والخبر يدل على خاصة النبوة بخلاف غيره؛ فالنبوة تتضمن الخبر.

٣

معنى العلو والرفعة المأخوذ من (النبا) داخل في معنى (النبأ)؛ فمن أنبأه الله وجعله مُنْبِئًا عنه لابد أن يكون رفيع القدر عليًا، وقد يوصف من ليس بنبي بالعلو والرفعة، فلا تدل على خصوص النبوءة.

٤

إن ترك الهمز المقصود منه التخفيف.

ثانيًا:

النبوءة والغيب (المصدر والمرتكز)

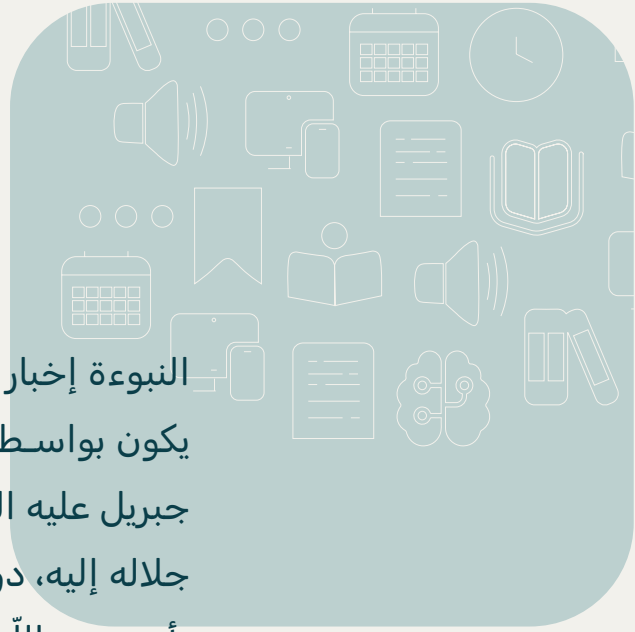

النبوءة إخبار عن الغيب؛ فاللّه جل جلاله يخبر نبيه بشرعه وقد يكون بواسطة أو بدون واسطة، والواسطة بين اللّه وأنبيائه جبريل عليه السلام، والنبي ﷺ يُخبر الناس بما أوحى اللّه جل جلاله إليه، دون أي تدخل منه ﷺ ؛ فمفهوم النبوة له بعدين؛ رأسي من اللّه إلى النبي، وأفقي من النبي إلى الناس، وترتكز على الغيب من جهتين: من جهة خبر النبي عن اللّه، ومن جهة طريقة وحي اللّه لنبيه.

ثالثًا:

النبوءة والدين (المصدر والمرتكز)

يـرتبط مفهـوم النبـوءة والـدين ارتباطًـا وثيقًـا مـن جهـة إلهيـة المصدر، والدين يرتكز على الجانب الإلهي الذي يتسم بالغيـب ، وليس مجرد نزعة للتقـديس، ورمزيتهـا الحسـية المتمثلـة فـي عبـادة الأصـنام؛ بـل بالخضـوع لقـوى الإلـه الغيبيـة المـدبرة. والدين لا يجعل من الإله مبـدأ تـدبير فعّـال فحسـب، بـل هـو مصدر حكم وتشريع فـي الوقـت نفسـه، وهـذا هـو الإلـه جـل جلاله المعبود بحق؛ وكل دين لابـد فيـه مـن حقيقـة متعاليـة يطلق عليها الإلـه، وفـي الأديـان التوحيديـة يطلـق عليهـا اسـم (اللّه) .

رابعًا:
النبوءة
(كواشف وزيوف)

النبوءة ترتكز على مفهوم الغيب، ومن هنا فإن سبب نزع الجانب الغيبي من مفهوم النبوءة: إنكار الوحي الذي أوحاه اللّه جل جلاله لنبيه، وهو متضمن للأحكام من الأوامر والنواهي؛ بمعنى عزل الدين عن شؤون الحياة ليعيش الإنسان كما يريد الإنسان؛ وفق عقله المخلوق، ولم يتم التصريح علانية بتنحية الدين عن مناحي الحياة بل تم سلوك طريق ملتوٍ يهدف لتحريك الأسّ الذي يقوم عليه الدين برمته وهو النبوءة.

وهـذه الحيـاة اللادينيـة هـي ذاتهـا الحيـاة التـي كـان يعيشها الناس قبل بعثة النبـي ﷺ التـي لا تُـؤمن إلا بمـا هو مشاهد ومحسوس وملموس.

وصلاح النـاس إنمـا كـان بعـد بعثـة النبـي ﷺ، ولا غـرو فصلاح الناس والنهضة الحقيقية تتحقـق بالاستضـاءة بنور الوحي.

خامسًا:

خلاصة الخلاصة

إن مفهـوم النبـوءة يرتكـز عـلى الغيـب، ولا بـد للنبـي الصادق الذي يخبر أنه نبـي مُرْسَـل مـن عنـد اللّـه مـن دليل يبرهن على صدقه، فما الدليل وما مرادفاته ؟!

هذا مَـا سيوضحه المطلب التالي بإذن اللّه تعالى.

المطلب الثاني

مفهوم الدليل ومرادفاته (التعريف والتدليل)

أولاً:
تعريف الدليل

الدليل الأمارة في الشيء؛ وهو يستلزم عين المدلول، ولا يكون مدلوله أمرًا كليًا مشتركًا بين المطلوب وغيره، بل نفس العلم به يوجب علمًا بعين المدلول؛ كما أن الشمس آية النهار، قال جل جلاله: (وَجَعَلنَا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَينِ فَمَحَونا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلنا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرَةً) [الإسراء: ١٢] فالعلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجود النهار. كما أن آيات نبوة محمد ﷺ نفس العلم بها يوجب العلم بنبوته.

وقد يكون الدليل واحدًا وله وجوه دلالة متعددة تدل على أمر واحد، وهذا مثل دليل القرآن؛ فقد دل على صدق نبوءة محمد ﷺ، وتعددت فيه وجوه الدلالة، فهو من أعظم الآيات وأظهرها وأبقاها.

ولم يرد في القرآن الكريم لفظ الدليل بمعنى ما يُستدل به على قضية النبوءة، وإنما ورد لفظ الآية والبرهان والسلطان والبينة والبصيرة حيال الاستدلال على قضية النبوة؛ وهي ألفاظ شرعية صحيحة مرادفة للدليل.

ثانيًا:
تعريف الآية

هي العلامة؛ وسُميت الآية من القرآن آية لأنها علامة على اللّه تعالى؛ وسُميت دلائل صدق الأنبياء آيات لأنها علامات قاطعة على صدقهم.

ثالثًا:
تعريف البرهان

الحجة القاطعة التي تكبت الخصم؛ والبرهان يقتضي الصدق واليقين أبدًا لا محالة؛ لأنه الحجة الفاصلة البينة.

رابعًا:

تعريف السلطان

في أصل اللغة يدل على التمكن والقوة والقهر، ويُطلق ويراد به الحجة والبرهان، وكل سلطان في القرآن فهو حجة، وإنما سُمي سلطانًا لأنه حجة اللّه جل وعز في أرضه، ولذلك قيل للأمراء: سلاطين لأنهم الذين تُقام بهم الحجج والحقوق، وقد جاء طلب السلطان من منكري النبوءة من أنبيائهم، قال تعالى: (قالَت رُسُلُهُم أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالأَرضِ يَدعوكُم لِيَغفِرَ لَكُم مِن ذُنوبِكُم وَيُؤَخِّرَكُم إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالوا إِن أَنتُم إِلاّ بَشَرٌ مِثلُنا تُريدونَ أَن تَصُدّونا عَمّا كانَ يَعبُدُ آباؤُنا فَأتونا بِسُلطانٍ مُبينٍ * قالَت لَهُم رُسُلُهُم إِن نَحنُ إِلاّ بَشَرٌ مِثلُكُم وَلكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَن نَأتِيَكُم بِسُلطانٍ إِلا بِإِذنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَليَتَوَكَّلِ المُؤمِنونَ) [إبراهيم: ١٠ - ١١].

خامسًا:
تعريف البينة

بان الشيء بيانًا؛ أي: اتضح وظهر فهو بيّن، وهي الأدلة والبراهين البينة في نفسها التي يتبين بها غيرها.

سادسًا:
تعريف البصيرة

هي البرهان والحجة، وأصل ذلك كله وضوح الشيء، يقال: بَصُرْتُ بالشيء إذا صرتَ به بصيرًا عالمًا، والبصيرة: اسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقق الأمر، وجمعها بصائر.

سابعًا:
تعريف الحجة

هي البرهان والدليل، وما يدل على صحة الدعوى.

المطلب الثالث

التعريف بالقرآن

أولاً: القرآن الكريم الدليل والمدلول:

برهن القرآن على نبوءة محمد ﷺ من جهة كونه أوحاه اللّه إليه، ومصداق ذلك في قوله ﷺ: (ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلاّ أُعْطِيَ ما مِثْلُهُ آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أوْحاهُ اللَّهُ إلَيَّ، فأرْجُو أنْ أكُونَ أكْثَرَهُمْ تابِعًا يَومَ القِيامَةِ) رواه البخاري.

ثانيًا: تعريف القرآن بخصائصه:

كلام اللّه تعالى، مُنزَّل غير مخلوق، نزل به جبريل على محمد ﷺ، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، منه بدأ وإليه يعود .

ثالثًا: دلالة القرآن على نبوءة النبي ﷺ من جهة النظم والمعنى.

برهن القرآن الكريم على صدق نبوءة النبي ﷺ من جهة النظم والمعنى، ولا يمكن أن تقتصر برهنته على جهة واحدة؛ ونشير لهذه الدلالة لأن المعتزلة يرون أن كلام اللّه يقتصر على اللفظ فقط دون المعنى، والأشاعرة يرون أن كلام اللّه يقتصر على المعنى فقط دون اللفظ.

رابعًا: البشرية والأنسنة والأرخنة والمحاولات البائسة.

مع وضوح خصائص القرآن إلا أن بعض المكذبين بنبوءة النبي ﷺ قديمًا وحديثًا حاولوا زحزحة مصدره الإلهي، فحاول كفار قريش نزع القداسة الإلهية عن القرآن الكريم، فأحالوه إلى نص بشري لم يوحِ اللّه به إلى نبيه محمد ﷺ، إنما تعلمه من بعض البشر، قال تعالى: (وَلَقَد نَعلَمُ أَنَّهُم يَقولونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) [النحل: ١٠٣]، أو أنه افتراء من محمد ﷺ، قال تعالى: (بَل قالوا أَضغاثُ أَحلامٍ بَلِ افتَراهُ بَل هُوَ شاعِرٌ) [الأنبياء: ٥]، وأنه افتراه بمساعدة آخرين له، قال تعالى: (وَقالَ الَّذينَ كَفَروا إِن هـذا إِلا إِفكٌ افتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيهِ قَومٌ آخَرونَ فَقَد جاءوا ظُلمًا وَزورًا) [الفرقان: ٤].

وحقيقة قولهم هو الافتراء والكذب

يقول اللّه تعالى: (إِنَّما يَفتَرِي الكَذِبَ الَّـذينَ لا يُؤمِنـونَ بِآيـاتِ اللَّـهِ وَأُولئِـكَ هُـمُ الكاذِبونَ) [النحل: ١٠٥]

مع التأكيد بأن كفـار قـريش كـانوا معتـرفين بـأن القـرآن لـيس مـن جـنس كـلام المخلوقين، لكنهم لم يُسلّموا لحقيقة ذائقتهم اللغوية التي لا ينكرها إلا مكابرً أو جاهل بلغة العرب؛ وأسلموا عقولهم لأهوائهم لرد ما جاء به النبي ﷺ من الحق.

ومـا زال قـولهم يتكـرر بمنطلقـات فكريـة أخـرى إلى يومنـا هـذا، وفـق أسـس فلسفية تقول بأرخنة وأنسنة النص القرآني؛ لنزع المصـدر الغيبـي مـن مفهـوم النبوءة ودليل صدقها (القرآن) .

خامسًا: القول بخلق القرآن بين المعتزلة وعلمانيّ العرب (النظرية والتطبيق).

المعتزلة وإن قالوا بأن القرآن مخلوق، ووقعوا في تأويل الآيات لتنزيه اللّه عن مشابهة المخلوق استنادًا على أدلتهم العقلية، إلا أنهم يثبتون إلهية مصدره، ودلالته على صدق نبوءة النبي ﷺ، ويحتجون به على من خالفهم، ويردون به على الملاحدة منكري النبوءات، بخلاف العلمانيين الذين تبنوا قول المعتزلة بخلق القرآن لأرخنته وأنسنته لإنكار إلهية مصدره، ولنزع القداسة عنه، ومعاملته كنص أدبي، فلا دلالة فيه على صدق النبوءة، ولا تعظيم لآياته ودلائله وقائله؛ فتم تعطيل العمل بالقرآن وفق قراءة معاصرة تتناسب مع إنسان هذا الزمان. مع أنه -في الحقيقة- لا يمكن للإنسان أن يعيش في معزل عن هدي القرآن.

المطلب الرابع

النبوءة وأدلتها

(التلازم بين الدليل والمدلول)

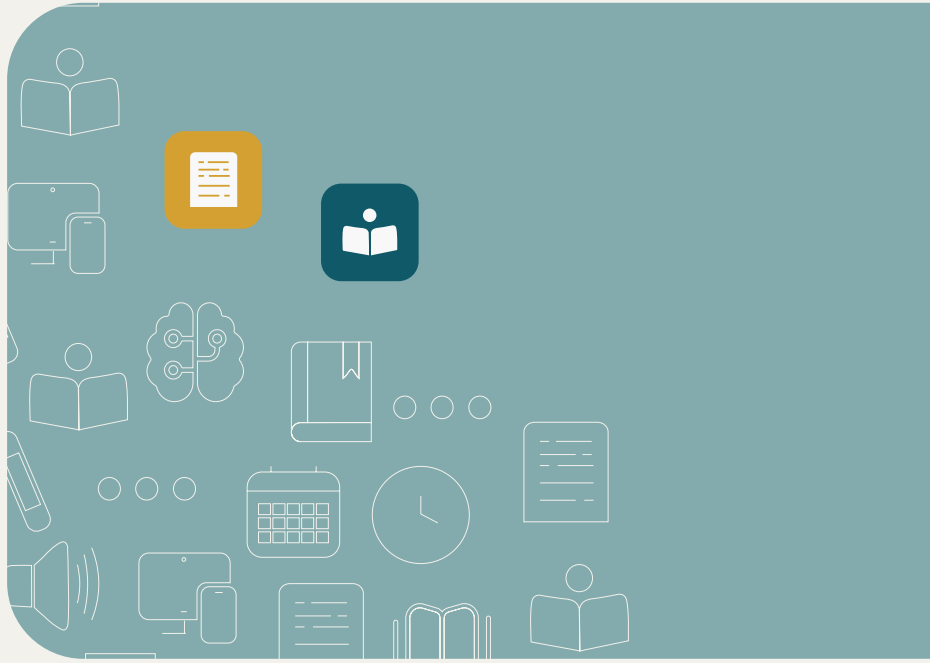

تتباين مواقف الناس من النبي الصادق للنبوءة؛ فمنهم مَن يُقر بجنس النبوءات وهم أنواع، ومنهم مَن ينكر جنس النبوءات.

ولكل نوع من الناس أدلة تبرهن لهم صدق النبي، فتنوعت دلائل النبوءة، ولم تنحصر في طريق واحد، ودعوى النبوءة واحدة.

ويحق هنا التنبيه على أمور:

جنس النبوة سابق على أدلة صدقها، وأدلتها لا توجد إلا مع دعوى النبوة الصادقة، ولا يمكن أن يكون دليل النبوءة مع ما يناقضها.

ثبوت النبوة في نفسها وثبوت صدق النبي وثبوت ما أخبر به في نفس الأمر ليس موقوفًا على وجودنا فضلاً أن يكون موقوفًا على عقولنا أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا.

ليس من شرط دليل النبوءة اقترانه بزمن دعواها، فآيات النبوءة وبراهينها تكون في حياة الرسول وقبل ولادته وبعد مماته.

لا يمكن أن تنفك دلائل الصدق عن دعوى الصادق، سواء استدل بها أو لم يستدل.

الدليل الدال على صدق النبوءة يقتضي بالضرورة العقلية ثبوت جميع ما أخبر به النبي للعمل به، وهذه هي غاية النبوءة وأدلتها.

المطلب الخامس

النبوءة وأدلتها (خصائص وسمات)

الدين الذي أُمرنا أن ندين اللّه به مبني عـلى الأدلـة التي جاء بها الـوحي، وهـذا يعنـي غناهـا التـام مـن مقدمات الأدلة الأجنبية، وهذا من إكرام اللّه لهذه الأمة وتفضله عليها بإكمال الدين وإتمام النعمة.

أولاً:
سمات النبوءة.

تستند النبوءة على الوحي -وهو الحقيقة الغيبية- فاختصاص النبي بالوحي يميزه عن بقية البشر؛ فالنبي ﷺ عاش زمنًا بين قومه ولم يدَّعِ النبوءة، حتى أوحى اللّه تعالى له، قال تعالى: (قُل لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلا أدراكُم بِهِ فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُرًا مِن قبلِهِ أفَلا تَعقِلونَ) [يونس: ١٦] وقال جل جلاله: (وَما كُنتَ تَرجو أن يُلقى إِلَيكَ الكِتابُ إِلاّ رَحمَةً مِن رَبِّكَ) [القصص: ٨٦].

النبوءة لاستنادها على الغيب تُجيب بدورها على أسئلة الوجود والغاية الكبرى، والماضي والمستقبل؛ فلا سبيل للإجابة عليها إلاّ عن طريق موجدها وخالقها.

الناس في حاجة ملحة إلى النبوءة في كل زمان ومكان، فـالفترة التي لا يكون فيها نبوءة هي فترة مظلمة.

خُتمت النبوءة بالنبي الخاتم محمد ﷺ؛ وبدؤها وختمها ليس من ذات النبي ﷺ بل كان من أمر اللّه تعالى الذي أرسلهم، (مـا كـانَ مُحَمَّدٌ أبا أَحَدٍ مِن رِجالِكُم وَلكِن رَسولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيّينَ وَكـانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمًا) [الأحزاب: ٤٠].

ومن أوجه الدلالة على ختمها:

١
لم يجرؤ أحد من الأنبياء قبل النبي محمد ﷺ بادعاء ختم النبوة به.

٢
إخبار النبي ﷺ بخروج الكذابين كل منهم يدّعي النبوة.

٣
كل مدعي النبوة بعده ﷺ قد ظهر كذبه.

٤
عموم رسالته ﷺ.

٥
كمال الدين الذي لا يحتاج بعده إلى بلاغ.

النبوءة ذات صبغة إلهية؛ جُعل أهلها عـلى شـريعة واضـحة فـي الأوامر والنواهي من لدن عليم حكيم يعلم ما ينفعهم ويضرهم؛ لتحقيق الغاية من خلقهم ولا طريق لمعرفة ذلك على التفصـيل إلا من جهة الأنبياء.

ثانيًا:
سمات أدلة النبوءة

أدلة النبوءة فطرية عقلية نقلية؛ فمن صدق النبي صدقه لقرينة حاله وخطابه فحصل له علم ضروري بصدقه لا يمكن أن يدفعه عن نفسه.

تتنوع دلائل النبوءة فهي من جنس دلائل الربوبيـة فيهـا الظـاهر والبيّن لكل أحد، وفيها ما يختص به من عرفه، وطرق العلـم بهـا متفاوتة، فما اشتدت الحاجة إليـه فـي الـدين والـدنيا فـإن اللّـه يجود به على العباد جـودًا عامًـا ميسـرًا، وكلمـا كـان النـاس إلى معرفة شيء أحوج فإنه جل وعلا يجعلـه سـهلاً ميسـرًا غيـر ذي عوج؛ وقد جاء ذلك في كتاب اللّه كافيًا شافيًا.

آيات الأنبياء متنوعة فمنها القـولي والفعلـي وهـي إمـا فـي بـاب العلم أو القدرة، وهي متعددة لا يمكن حصرها في دليل واحد.

تنوعت الدلالات في القرآن الكريم؛ لأن طرق الناس في اقتناعها بالأدلة ليست على درجة واحدة؛ وهذا من رحمة رب العالمين بعباده، قال ابن تيمية رحمه اللّه: (وكثير من الطرق لا يحتاج إليه أكثر الناس، وإنما يحتاج إليه من لم يعرف غيره، أو من أعرض عن غيره، وبعض الناس كلما كان الطريق أدق وأخفى وأكثر مقدمات وأطول كان أنفع له لأن نفسه اعتادت النظر الطويل في الأمور الدقيقة).

دلائل النبوءة قطعية تفيد العلم واليقين.

دلائل النبوة متفاوتة من جهة الاستدلال ومن جهة التأثير .

دلائل النبوءة لابد أن تكون في نفسها وجنسها دليلاً، فجنس آيات الأنبياء خارق للسنن الكونية حسًا ومعنًى، فهي خارجة عن مقدور الخلق كلهم لأنها من فعل اللّه تعالى تأييدًا لنبيه وتصديقًا له، ولا يمكن معارضتها.

أدلة النبوءة ليست هي من فعل النبي، ولا هي داخلة في قدرته، ولا هي تلبية لطلبه، بل هي من عند اللّه، يؤيد بها من شاء من أنبيائه، قال تعالى: (قُل إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ) [الأنعام: ١٠٩]، وطالبو الآيات ومقترحوها هم من المكذبين بالنبوءة.

أدلة النبوءة صحيحة في ذاتها لا تتغير باختلاف المخاطبين، فما لا تقوم به الحجة على المكذبين، فإنه لا يصح لتقوية يقين المؤمنين.

آيات الأنبياء يصدق بعضها بعضًا، ولا يمكن أن ينقض بعضها الآخر؛ فالحق لا يعارض الحق ولا يكذبه.

آيات الأنبياء مختصة بهم معتادة لهم، ولا تكون لغيرهم.

آيات الأنبياء منها ما يكون مشتركًا بينهم كالإخبار بالغيب، وإحياء الموتى ولا يلزم ذلك في سائر الآيات، ومنها ما يكون لا نظير له.

أدلة النبوءة قد تدل بمجردها، وقد تدل بقصد الدال على دلالة وهذا أحق بالدلالة ودلالته أكمل.

الآيات الكونية؛ كانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ وغيرها هي وسيلة للدلالة على صدق النبي، ولها غاية هداية الناس إلى الإيمان لسعادتهم في الدنيا والآخرة، والقرآن الكريم هو الوسيلة والغاية، قال تعالى: ﴿قالوا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آياتٌ مِن رَبِّهِ قُل إِنَّمَا الآياتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّما أنا نَذيرٌ مُبينٌ * أَوَلَم يَكفِهِم أَنّا أنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ يُتلى عَلَيهِم إِنَّ في ذلِكَ لَرَحمَةً وَذِكرى لِقَومٍ يُؤمِنونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ ، ٥١].

ليس من شرط آيات الأنبياء تحدي الإتيان بمثلها، ولم ينقل التحدي إلا في نظم القرآن وأسلوبه لما قال المشركون افتراه.

دلائل النبوءة السابقة للأنبياء السابقين لنبينا ﷺ لم تُرَ لمن جاء بعدهم لأنها كانت مادية؛ فهي لم تبقَ وإنما تواتر الخبر عنها واشتُهر؛ وهذا بخلاف القرآن دليل نبوءة النبي محمد ﷺ فهو دليل باقٍ.

ومن سمات دلالة القرآن:

- أنه واضح الدلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، حيث اشتمل على دعوى النبوءة و دليل صدقها، والدين الذي يدعو إليه والحجة عليه، وهذا خاص بالقرآن فقط، لأنه وحي من اللّه.

- أن القرآن اشتمل على دلائل متنوعة ومتفاوته على إثبات نبوة محمد ﷺ ومن قبله من الأنبياء، فهو دليل يشتمل على عدة دلائل، ولا يمكن حصر دلالات القرآن في وجه دون آخر، ولا الاقتصار على وجه وجعله الدليل الوحيد على صدق النبوة.

- أن القرآن دليل صدق نبوءة النبي ﷺ من أول ما نبأه الله تعالى.

- أن القرآن مُبرّأ عن الاختلاف والأضداد.

- أن القرآن آية واضحة بينة على صدق النبي ﷺ.

البراهين العقلية لا تتغير بتغير الزمـان والمكـان، والقـرآن دليـل صدق النبي ﷺ و هو باقي، لأن اللّه تكفل بحفظه، وبقاؤه يستلزم بقاء نبوءة النبي محمد ﷺ ويقويها ، فالقرآن حجـة لمـا فيـه مـن التنبيه إلى دلائل العقول.

الدليل على النبوءة هو العلم بأن ما جاء به حق من غير جهته.

المطلب السادس

مصطلح المعجزة والإعجاز
(إشكالية المصطلح)

الآيات والبراهين والحُجة والسلطان والبينة والبصيرة جميع هذه الألفـاظ وردت في القرآن الكـريم وكلهـا تـدل عـلى صـدق نبـوءة النبـي ﷺ وتُسـمى بـدلائل النبـوءة، وأعـلام النبـوءة؛ ويسـميها الـبعض (المعجـزات) و (المعجزة) إلا أن هذا المصطلح لم يرد في الكتاب والسنة.

تنويه: لم يستخدم السلف لفظ (المعجزة) كما استخدمه المتكلمون لأن دلالته محدودة؛ خلافًا للمصطلحات الشرعية التي تحمل مضامين متعددة، ذات دلالات متنوعة.

ولفظ (المعجزة) ليس فيه ما يقتضي اختصاص الأنبياء بذلك .

ومع أن مصطلح -المعجزة - يُرادف الدليل، غير أنه ظهر إثر اختلاط العرب بالأمم الأخرى لضعف اللسان العربي والبعد عن العهد النبوي، ودخول علوم اليونان في الإلهيات إبان حركة الترجمة.

فمصطلح (المعجزة) اصطُلح عليه في القرن الثالث، ولا يُعلم يقينًا أول قائل به.

لقد حصر كثير من المتكلمين أدلة صدق النبوءة في (المعجزة) فقط وحتى تكون (المعجزة) دليلاً -عندهم- على صدق النبوءة لا بد لها من شروط، وهي في مجملها تعود إلى: خرق العادة، والاقتران بالتحدي، ودعوى النبوءة، والسلامة من المعارضة.

وقفات مع شروط (المعجزة)

أولاً:

خارق للعادة..

ما المراد بالعادة؟

للعادة عدة تعاريف؛ منها: أنها ما استمر الناس عليه على حكم العقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى.

ويلاحظ على تعاريف العادة أنها تنفي العلاقة أو السببية؛ لأن العادة مجرد أمر معتاد متكرر، تألفه العقول على هذا النحو، دون سبب يربطها بأمر آخر؛ فما اعتاده الناس اليوم قد لا يعتادونه غدا؛ فالعادة نسبية وليست مطلقة.

وحين ادعى الطبائعيون بأن هناك تلازم حتمي بين السبب والمسبب، و أن الطبيعة هي الخالقة، ولها التأثير بالفعل وحدها، أحدث ذلك ردة فعل لدى بعض الأشاعرة؛ فأنكروا خواص الطبيعة؛ وقالوا بأنه لا أثر لها البتة؛ فاطراد الموجودات لا يقوم على الترابط العِلّي -عندهم- بل على العادة وجريانها، و أنكروا الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى؛ فالله تعالى -عندهم- لا يفعل لحكمة ولا لعلة، و المعجزة لم تكن لغرض تصديق النبي بل هي دلت على تصديق من الله قائم بذاته بالضرورة.

وحينما أرادوا الاستدلال على صدق النبوءة ونزاهة مُدعيها، قالوا: بأنها تكون عن طريق خرق العادة، فما يأتي به الأنبياء من الآيات التي تدل على صدقهم ما هو إلا دلالة عادية، لأن العادة جرت بأن المعجزة لا تظهر على يد الكاذب، وإن كان العقل يجوّز ظهورها على يد الكاذب بناءً على شمول القدرة الله تعالى، لكنها ممتنعة عادة، معلومة الانتفاء قطعاً، كما هو الحكم في سائر العادات!

والحق أن مصطلح العادة لفظ مموه إذا حُقق لم يكن تحته معنى إلا أنه فعل وضعي مثل ما نقول: جرت عادة فلان أن يفعل كذا وكذا يريد أنه يفعله في الأكثر، وإن كان هذا هكذا كانت الموجودات كلها وضعية ولم يكن هناك حكمة أصلاً من قبلها تنسب إلى الفاعل أنه حكيم. وكون الشيء معتاد أو غير معتاد أمر نسبي إضافي ليس بوصف منضبط، وبالتالي تكون خوارق العادات نسبية إضافية، فهي لا تصلح لكل زمان ومكان، وهذا يتنافى مع دلالة القرآن على صدق نبوءة النبي محمد ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

ثانيًا:

مقــرون بــدعوى النبوءة والتحدي

لمّا لم يكن لديهم ضابط لخرق العادة؛ لـذا اشـترطوا دعوى النبوة والتحدي.

وهـذا الشـرط يتنـافى مـع سـمات أدلـة النبـوءة التـي تقتضي التلازم بين الدليل والمـدلول دون الاسـتدلال به، فالتحدي يقوم على كون الدليل لا يدل بنفسه على المدلول وإنما لا بد من استدلال المُستدل به؛ إضافة إلى أن اشتراط التحدي مخـالف لواقـع آيـات الأنبيـاء فكثير منها لم تكن مقرونة بالتحدي .

وما اشترطوه من اقتـران التحدي ودعوى النبـوءة لا أصل له، بل يلـزم منـه القــدح فــي المعجــزات لعـدم تحقـق مـا اشـتُرط فيها.

ثالثا:

سالم من المعارضة

سلامة المعجـزة مـن المعارضـة هـي دليـل على صحة نبوءته، وطلب الإتيان بالمثل كـان في آيات النبوءة ولم يكن في دعوى النبوءة.

رابعًا:

مقرون بزمن دعوى النبوءة

اشتراط اقتران الآية بدعوى النبوءة غيـر مسـلم بـه؛ لأن الآية شهادة من الله جـل جلالـه لصـدق نبـوءة أنبيائه لأهل كـل عصـر ومصـر. فـلا يلـزم كونهـا فـي محل النبوءة ولا زمانها ولا مكانها.

ويمكـن تعريـف المعجـزة بـدون شـروط المتكلمـين الـذين قيـدوا المعجزة بها: أنها أمر خارق للسنن الكونية الحسية والمعنوية يُجريـه الله تعالى على يد نبيه تصديقًا له، أو هي آية الله الخارقة الدالـة عـلى النبوءة الصادقة.

ومع ذلك العدول عن هذا اللفظ (المعجزة) لأن:

التعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها؛ لأنها يجب الإيمان بها، فهي تنزيل من حكيم حميد.

الأمة مُجمعة على الألفاظ القرآنية كون القرآن مصدرها.

وجوب الإقرار بمضمون الألفاظ، قبل فهمها، ففيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه.

الألفاظ المُحدَثة فيها إجمال واشتباه ونزاع.

وبذلك نستنتج أن: الاقتصار على ما ورد في الكتاب والسنة من مصطلحات ومسميات شرعية يضبط كثيرًا من مسائل ودلائل الدين، والتي منها مسألة النبوءة ودلائلها.

المبحث الثاني

الأدلة العقلية على إمكان النبوءة

دليل الخلق والقدرة وقياس الأولى:

دل الدليل العقلي على أن الله سبحانه خالق الخلق ومالكهم، وأن له الخلق والأمر والملك، فهو وحده يتصرف في الخلق بالأمر والنهي، وهو وحده يختار مَن يشاء ليبلغهم أمره ونهيه، قال تعالى: (وَرَبُّكَ يَخلُقُ ما يَشاءُ وَيَختارُ) [القصص: ٦٨]، وهو وحده سبحانه أعلم بمن يجعله نبيًا ممن لم يجعله نبيًا يقول تعالى : (اللَّهُ أعلَمُ حَيثُ يَجعَلُ رِسالَتَهُ) [الأنعام: ١٢٤].

وكل دليل على قدرة الله تعالى فهو يدل من باب أولى على قدرته سبحانه على بعثة الأنبياء.

دليل العناية والحكمة:

إن من يعترف بأن للعالم خالقًا حكيمًا فلا بد من أن يعترف بأنه آمـر نـاهٍ، حاكم على خلقه، وله في جميع ما يأتي ويذر حِكَم وأمر. واقتضت حكمته سبحانه أن يرفع بعض الناس فوق بعض درجات ليتخـذ بعضـهم بعضًـا سخريًا، ورحمة ربك خير مما يجمعون.

ولا يمكن للعباد وحدهم معرفة كيفية عبادتـه جـل جلالـه إلا مـن جهـة الأنبياء الذين هم واسطة بين الله تعالى وخلقه في تعريفهم ما يـنفعهم ويضرهم وتكميل مايصلحهم في معاشهم ومعادهم، ومن خُلق للعبادة لا يصح ولا يحسن أن يُهمل. (أفَحَسِبتُم أَنَّما خَلَقناكُم عَبَثًا) [المؤمنـون: ١١٥]، والأدلة التي برهنت على حكمة الله، قـد دلـت عـلى أن مـن خُلِـق للعبادة لا يصلح أن يُهمل ويُترك دون أمـر ونهـي، ودون حسـاب وجـزاء. فالمسألة إذًا لها اتصال مباشر بتنزيه الله تعالى عما ينافي حكمته؛ وهذا من أقوى الأدلة العقلية على إمكانها بل ضرورتها.

دليل الضرورة والحاجة والافتقار:

من القضايا العقلية أن نوع الإنسان في حاجـة إلى الاجتمـاع عـلى نظـام وصـلاح؛ وإن ذلـك الاجتمـاع لـن يتحقـق إلا بتعـاون وتمـانع، وإن ذلـك التعـاون والتمـانع لـن يتصـور إلا بحـدود وأحكـام، وإن تلـك الحـدود والأحكام يجب أن تكـون موافقـة لحـدود اللـه وأحكامـه، فلـزم العقـل ضرورة أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يتلقى من الله وحيًا، وينزله تنزيلاً على عباده.

فحال الناس عند انقطاع الأنبياء عنهم واندراس تعاليمهم : فساد عام مطبق، في التصورات والسلوك، وفي جميع النواحي الدينية والدنيوية. قال الله تعالى يصف حال الناس قبل بعثته ﷺ : (وَإِن كانوا مِن قبلُ لَفي ضَلالٍ مُبينٍ) [الجمعة: ٢]، واطراد هذا في كل أمة تندثر فيها النبوءة دليل قاطع دون شك على افتقار العالم الشديد إلى النبوءات، وامتناع استغنائهم عنها بعقولهم.

ولما كانت النبوءة ضرورة ملحة اقتضت رحمة الله تعالى بخلقه وسعة كرمه أن يبعث لهم نبيًا من أنفسهم، وييسر طرق الوصول إلى أدلة صدقه.

دليل العدل الإلٰهي:

إن من تمام العدل الإلهي أن لا يعذب حتى يبعث نبيًا، قال تعالى: (وَما كُنّا مُعَذِّبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسولاً) [الإسراء: ١٥]، من أجل ذلك أرسل الرسل لتقوم الحجة على العباد؛ قال تعالى: (رُسُلاً مُبَشِّـرِينَ وَمُنْـذِرِينَ لِـئَلاّ يَكُـونَ لِلنَّـاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)) [النساء: ١٦٥]

دليل الاستقراء التاريخي :

يمكن إثبات إمكان النبوءة من خلال الاستقراء التاريخي؛ فحينما أنكر الكفار نبوءة النبي محمد ﷺ بدعوى أنهم لم يسمعوا بها من قبل جاء الرد عليهم من خلال استقراء التاريخ، والنظر في أحوال الأمم السابقة، والاستدلال على إمكان نبوءة محمد ﷺ بإمكان النبوءات السابقة، قال تعالى: (قُل ما كُنتُ بِدعًا مِنَ الرُّسُلِ) [الأحقاف: ٩]؛ أي: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي فقد تقدم من الرسل والأنبياء من واقعت دعوتي دعوتهم فلأي شيء تنكرون رسالتي؟!

وبمجموع هذه الأدلة يثبت لكل عاقل أن النبوة ممكنة، وأن بعثة الأنبياء ليست مستحيلة، وإذا ثبتت النبوءة بأدلتها كان لا بد من تصديق النبي في كل ما يُخبر به عن الله جل جلاله، والتسليم له، فهذه هي الغاية من نصب أدلة إمكان النبوة وإقامة براهين صدق النبي.

المبحث الثالث

العلاقة بين مسألة النبوءة ومسائل العقيدة

- النبوءة دلالة على وجود اللّه تعالى وكماله في الصفات من جهة الخلق والقدرة والحكمة والرحمة والعدل، بالآيات الخارقة للسنن الكونية. كما تدل على وجوده من جهة أدلتها؛ فخرق السنن الكونية تأييدًا لصدق الأنبياء يدل بالضرورة على وجود الرب القادر على كل شيء.
- النبوءة هي أحد أركان الإيمان الستة؛ وهي الإيمان باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ؛ ولولا الأنبياء ما عُرفت!

- النبوءة هي المستند العقلي لسائر مسائل الاعتقاد؛ فإذا ثبتت وجب قبول كل ما أخبر به النبي عن الله من الأمور الغيبية؛ ولا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا على أيدي الأنبياء ولا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث على جهة التفصيل إلا من خلالهم.

- الإيمان بالنبوءة هو الطريق الموصل لمعرفة الله ومحبته ورضوانه وهو السبيل المؤدي إلى النجاة من عذابه والفوز بمغفرته.

- التصديق بالنبوءة فرع عن التصديق بالكتب؛ فالكتب نزلت على الرسل، فلا بد من الإيمان بهما، والقرآن من دلائل نبوءة النبي ﷺ.

- مسألة النبوءة نفسها كلٌ لا يتجَّزأ فإذا ثبتت نبوءة نبي كان ثبوتها لغيره من باب أولى؛ فلا يمكن التفريق في الإيمان بنبوءة الأنبياء؛ بل لابد من الإيمان بهم جميعًا جملة وتفصيلاً.

المبحث الرابع

العلاقة بين مسألة النبوءة ومسائل العقيدة

أولاً: أصناف المكذبين بالنبوءة:

من ينكر الخالق فهو من باب أولى ينكر النبوءة ومسائل الدين جميعًا؛ والنقاش مع هؤلاء يكون في إثبات الخالق أولاً.

من ينكر الإله، كحال فرعون؛ والنقاش معهم يكون في إثبات الإله لعبادته.

من يثبت وجود الله تعالى الخالق لكنه لا يوحده، ويدين لمعبودات كثيرة؛ كحال كفار قريش. فالنقاش معهم يكون في إمكان النبوءة.

من يثبت جنس النبوءة كأهل الكتاب، وينكر نبوءة نبي بعينه؛ فمناقشتهم تكون بدلالة النبي الذي صدقوه على رسالة النبي الذي أنكروه.

ثانيًا:

النبوءة اصطفاء إلهي لحكمة إلٰهية:

النبوءة منَّة من الله سبحانه وتعالى؛ إذ اصطفى سبحانه خيرة خلقه؛ في الكمال الخلقي والأخلاقي وخصهم بالوحي دون غيرهم؛ وقد أكد الله تعالى أن النبوة اصطفاء من عنده في عدة آيات بصيغ مختلفة، ومن خلال دلالة آيات الاصفاء الإلهي للأنبياء يتبين ما يلي:

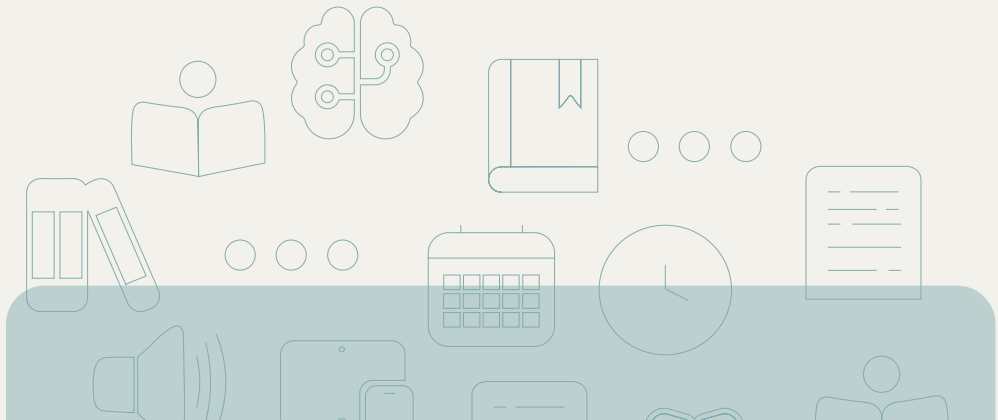

لا يمكن أن تكون النبوة واجبة على الله؛ كما يقول المعتزلة والشيعة، بناءً على أصولهم العقلية في التحسين والتقبيح العقليين، واللطف الإلهي، فهم يزعمون أن النبوة جزاء على عمل قام به النبي فاستحق أن يكافئه الله عليه ببعثته، ولا علاقة لها بالاصطفاء الإلهي!

لا يمكن أن تكون النبوة جائزة كما يزعم الأشاعرة، بناء على أصولهم العقلية في أن أفعال الله تكون على الجواز والإمكان لا الوجوب أو الامتناع ؛ وأفعال الله -بزعمهم- لا تتعلق بحكمة ولا علة ولا غرض!

لا يمكــن أن تنــال النبــوءة بالكســب والرياضــة والتصفية.

النبوة محض اصطفاء ومنة وفضل من الله للأنبياء ولا يمكن أن نلغي التفاضل بين الأنبياء فالتفاضل بينهم يعود إلى مرسلهم.

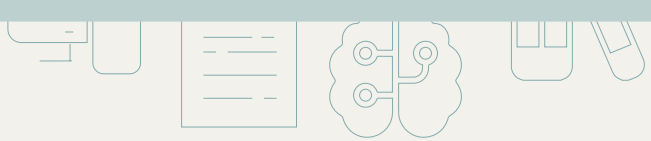

ثالثًا:

بشرية الأنبياء:

من رحمة الله بخلقه ومن تمام حكمته كان الأنبياء من جنس البشر، لأنه أيسر في الأخذ عنهم

لو كان سكان الأرض ملائكة لبُعث إليهم أنبياء من جنسهم؛ لأن الجنس لجنسه أميل.

لو كان الأنبياء من الملائكة لم يستطع البشر الأخذ عنهم لصعوبة رؤيتهم في صورتهم الحقيقية.

لو كان الملائكة أنبياء وبعثهم الله للبشر لالتبس عليهم الأمر.

لو قدر أن المشركين رأوا الملائكة لكان هذا يوم هلاكهم.

لو أنزل الله سبحانه ملكًا لن يؤمنوا ولقُضي عليهم العذاب الذي هددهم الله تعالى به إذ الملائكة لا تنزل بين القوم المغضوب عليهم إلا لإنزال العذاب بهم.

إرسال البشر أمر معتاد مألوف وليس هو أمر لم تجرِ به عادة الرب سبحانه وتعالى.

رابعًا:

أخبر المولى سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أن المكذبين بجنس النبوءات كانوا يطالبون بالآيات الحسية المادية لا ليؤمنوا بل تعنتًا وعنادًا منهم.

ومن رحمة الله أنه لم ينزل الآيات التي يقترحها الكفار؛ لأنهم سيكذبون بها إن نزلت، وإذا كذبوا بها عاجلهم العذاب الذي يستأصلهم.

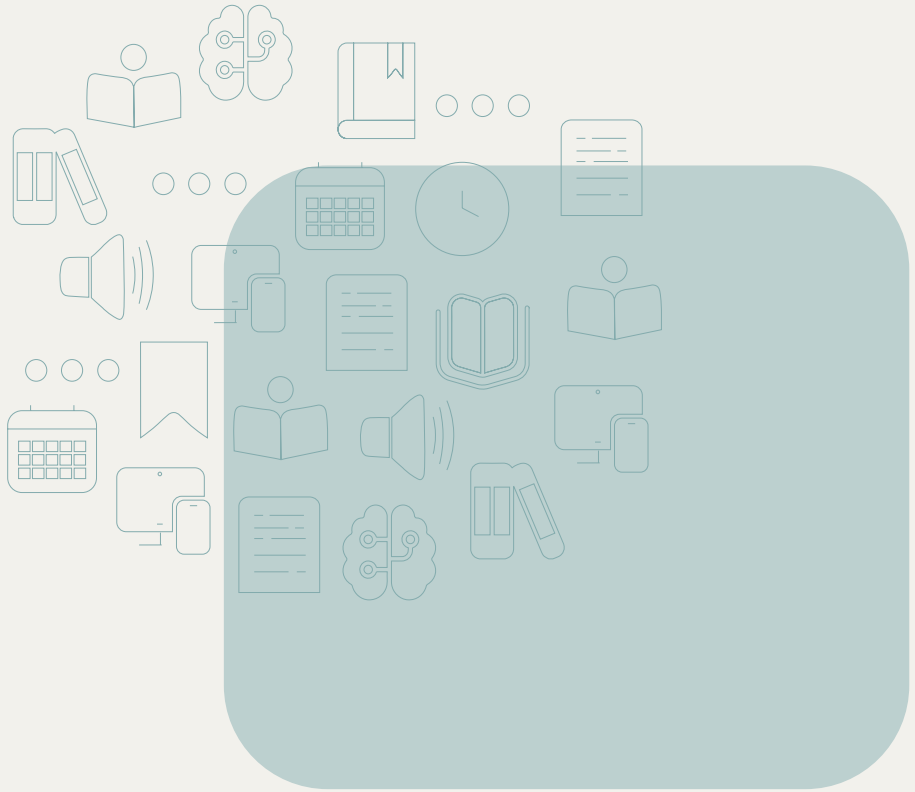

خامسًا:

لقد بيّن الله تعالى في كتابه العزيز تعنّت المكذبين بالنبوءة، فلم يعد طلبهم مقتصرًا على اقتراح الآيات المادية بل تجرؤوا وطلبوا استعجال العذاب كي يتبين لهم الحق إن كان الأنبياء صادقين، ؛ وكيف سيتبين لهم صدق النبي بعد هلاكهم؟ فدل ذلك أن هدفهم ليس طلب الحق وإنما هو التكذيب المبني على الجهل المركب.

الفصل الثاني

دلالة اتصاف النبي ﷺ بالكمال الأخلاقي

المبحث الأول

دلالة اتصاف النبي ﷺ بكمال الصدق

مفهوم النبوءة يرتكز على الإخبار بالغيب الذي يبلغه الله للنبي، ويبلغ النبي للناس كل ما أوحاه اللّه إليه، فالنبوءة تعتمد على الخبر، وكل ما جاء به النبيﷺ من مسائل ودلائل هو محض خبر.

وناقل الخبر لابد من أمانته؛ وهذا لا يكون إلا لمن كمُلت أخلاقه، بحيث يصبح الصدق ملازمًا له طول حياته، فلا يتصور العقل وقوع الكذب منه مطلقًا لأنه يتنافى مع كمال أخلاقه؛ وهذا من مقتضى الضرورة العقلية، والاتصاف بالصدق يعني الاتصاف بباقي الصفات الحسنة الكاملة من باب أولى، وقد وصف الله جل وعلا النبي ﷺ بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ) [القلم: ٤] فهو ﷺ بلغ غاية الكمال الأخلاقي طيلة حياته حتى مماته بل إن صدقه تبين للناس بعد وفاته ﷺ.

الدلالات التي برهنت على اتصاف النبي ﷺ بالصدق، من عدة وجوه:

الوجه الأول:

شهادة الناس بصدق النبي ﷺ، وانتفاء الكذب عنه، ومن ذلك:

شهادة قومه الذين نشأ بين ظهرانيهم بصدقه وأمانته وكمال أخلاقه، وقد عادوه بعد نبوءته. والقصص في ذلك عديدة جدًا، منها: شهادة عتبة بن ربيعة -من زعماء قريش في الجاهلية-حينما ذهب النبي ﷺ وقرأ عليه قول الله تعالى: (حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) [فصلت:١، ٢] حتى بلغ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ) [فصلت: ١٣] يقول عتبة لقومه: فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب.

وهنا سؤال منطقي؛ كيف يشهدون بصدقه ثم هم يكذبون نبوءته؟

لذلك أسباب عديدة منها:

التأثر بالعقل الجَمعي؛ الذي يرفض نبوءة محمد ﷺ.

وبعد تدقيق النظر في شواهد صدقه نجد أن اعترافهم بأنه صادق كان من خلال تفكير كل واحد منهم على حدة أو مع صاحب له، وهذا يتبين جليًا في قول الله تعالى: (قُل إِنَّما أَعِظُكُم بِواحِدَةٍ أَن تَقوموا لِلَّهِ مَثنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّروا ما بِصاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلاّ نَذيرٌ لَكُم بَينَ يَدَي عَذابٍ شَديدٍ) [سبأ: ٤٦]

فهنا دعوة للتفكير على انفراد بحيث يخلو كل واحد مع نفسه أو مع رفيق واحد للتفكر ليتضح لهم حال النبي ﷺ للانعتاق من ربقة التفكير بالعقل الجَمعي؛ الذي يجعل الكل أسرى لتفكيره، فلا يُتيح مجالاً للتأمل والحكم.

شهادة أهل الكتاب باتصاف النبي ﷺ بالصدق ونفي الكذب عنه.

لم تقتصر الشهادة على صدق النبي ﷺ على قومه فحسب؛ بل شهد له بذلك النصارى، وممن شهد له منهم بالصدق هرقل؛ إذ سأل أبو سفيان عن أسباب الكذب وعلاماته فرآها منتفية عنه، وسأله عن علامات الصدق فوجدها ثابتة له؛ فاستدل بقياس الأولى على صدقه في دعوى النبوءة؛ فمن كان لا يُعرف إلا بالصدق محال أن يكذب على الله. كما شهد له اليهود؛ كعبدالله بن سلام.

شهادة أتباع النبي ﷺ باتصافه بالصدق ونفي الكذب عنه.

ومن ذلك:

- شهادة أقرب الناس إليه زوجته خديجة -رضي الله عنها- فهي تعلم أنه الصادق الأمين، وقالت له: كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ، وتُقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

  وقد عُلم من سنة الله أن مَن جَبله الله على الأخلاق المحمودة ونزهه عن الأخلاق المذمومة فإنه لا يخزيه.

- شهادة صديقه أبي بكر -رضي الله عنه- لما أُسري برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، حيث قال رضي الله عنه: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة.

وغير هذه الشواهد كثير جدًا؛ فلم يجرؤ أحد من قوم النبي ﷺ على رميه بالكذب؛ إذ لم يكن صدقه موضع شك مطلقًا لدى القريب والبعيد، فقومه على علم بحياته كاملة ولم يرموه بالكذب والاحتيال؛ وإنما رموه بفقد الوعي والشعر والسحر وتسلط الجن عليه وتمكنها منه، وغير ذلك مما نفاه الله تبارك وتعالى عنه.

وفي قوله تعالى: (قل لَو شاءَ اللَّهُ ما تَلَوتُهُ عَلَيكُم وَلا أدراكُم بِهِ فَقَد لَبِثتُ فيكُم عُمُرًا مِن قبلِهِ أفَلا تَعقِلونَ) [يونس: ١٦] احتجاج على من لم يؤمن بمحمد ﷺ بأنه مكث فيهم من أول عمره إلى وقت إعلان نبوءته، وهم عالمون بحاله، ثم جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس العلوم والأخلاق فدل ذلك على أن ما جاء به وحي من الله تعالى وليس هو من عنده ، لا سيما وأنه أمي لم يقرأ ولم يتتلمذ ولم يطالع كتبًا.

الوجه الثاني:

اتصاف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من قبله بالصدق؛ فاتصاف الأنبياء بالكمال الأخلاقي أحد الأدلة على صدق نبوءتهم، ووصف القرآن لهم بذلك يعني لزوم انتفاء الكذب عنهم؛ والآيات في ذلك كثيرة؛ ومن ذلك وصفه سبحانه لإبراهيم عليه السلام بقوله: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا) [مريم: ٤١].

الوجه الثالث:

في كمال أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دلالة على كمال من أرسلهم سبحانه؛ وتصديقهم تصديقًا له وتكذيبهم تكذيبًا له.

الوجه الرابع:

ليس في كتب الأنبياء السابقين ما يوجب تكذيب النبي ﷺ، فجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حذروا من فتنة المسيح الدجال الكذاب الذي يلبث مدة قليلة، وبشّروا بدعوة محمد ﷺ؛ ولو كان كذبًا لكان تحذيرهم منه أولى من تحذيرهم من الدجال، فأتباعه أضعاف من يتبع الدجال، ودعوته قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الوجه الخامس:

دلالة اتصاف النبي ﷺ بكمال الصدق من جهة أتباعه، فلما بُعث النبي ﷺ تلقى عنه المسلمون؛ فكل علم نافع وعمل صالح عليه أمته أخذوه عن نبيهم ﷺ. وأن أتباعه لم يرتدوا عن الدين الذي جاء به سخطًا لدينه؛ بل يزيدون.

الوجه السادس:

الدلالة على صدقه من جهة حاله ﷺ، و ذلك من عدة أمور:

من المعلوم بالضرورة أنه لا يُمكن إبطان الكذب والديمومة عليه؛ دون كشفه.

استحالة أن يكذب على الله من لا يكذب على البشر.

يمتنع أن يكون حال مُدعي النبوءة نبيًا صادقًا، ومتنبئًا كاذبًا، في الوقت ذاته، لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان.

ثقة النبي ﷺ بربه جل وعلا وثباته مع تربص قومه به.

بقاء النبي ﷺ على كمال أخلاقه الحميدة من أول حياته حتى آخرها؛ قبل نبوءته وبعدها؛ إذ الكذاب المزور لا يمكنه ذلك.

صبر النبي ﷺ على تحمل المشاق؛ وزهده في الدنيا حتى بعد أن فُتحت عليه.

امتثاله ﷺ لما أمره به ربه جل وعلا وانتهاؤه عما نهى جل وعلا.

إن النبي الصادق تستمر نبوءته، بخلاف الكاذب مدعي النبوءة لا يدوم إلا مدة يسيرة.

توافق الأخلاق الحميدة فيه ﷺ وأنه نبي لا يمكن أن يحدث اتفاقًا دون سابق تقدير بإرادة وحكمة الرب جل وعز.

المبحث الثاني

دلالة استحالة كذب النبي ﷺ

الوجه الأول

لم يُتهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالكذب ولو حفظت عليهم كذبة نادرة في غير النبوءة لجُعِلت دليلاً على تكذيبهم.

غير أن من أسباب تكذيب الأنبياء بما جاءوا به:

- مخالفة ما جاء به الأنبياء لما عليه أقوامهم.
- مخالفة ما جاء به الأنبياء من الحق لعادات وتقاليد الآباء.

- أن الأنبياء من البشر.
- الحسد (وهو ما حمل اليهود والنصارى على تكذيب نبينا محمد ﷺ).
- الكِبر والمكابرة.
- الخوف على النفس والمصالح والمناصب الاجتماعية (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) [القصص: ٥٧].
- اتباع الهوى.

فهذه بعض أسباب تكذيب الأنبياء وهي تتكرر قديمًا وحديثًا .

الوجه الثاني

أن من يتصف بالصدق لا بد أن ينتفي عنه الكذب وكذا العكس؛ فدليل الشيء مُستلزم له كأعلام النبوة ودلائلها، وآيات الربوبيـة، وأدلة الأحكام، وغير ذلك، وانتفاء الشيء يعلم بما يستلزم نفيه، كانتفاء لوازمه مثل صدق الكاذب، يقال: لـو كـان صادقـًا لكـان متصفـًا بما يتصف به الصادقون.

الوجه الثالث

لو كان محمد ﷺ كاذبًا للزم من كذبه لوازم كثيرة -تفوق الحصر- تبين كذبه فإذا انتفت انتفى الملزوم، وصدقه ﷺ لازم لأمور كثيرة، كلها تدل على هذا الصدق، وثبوت الملزوم يقتضي ثبوت اللازم.

ومن ذلك ما جاء به القرآن من نفي الافتراء، والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: (وَما كانَ هذَا القرآنُ أن يُفتَرى مِن دونِ اللَّهِ وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ الكِتاب لارَيبَ فيهِ مِن رَبِّ العالَمينَ) [يونس: ٣٧] وما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى، أي ليس وصفه وصف شيء يمكن أن يُفترى به على الله، لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، والقرآن لا يقدر عليه البشر، ولما نفى القرآن الافتراء أخبر عنه بأنه تصديق للكتب السالفة وتفصيل لها. قال تعالى (ولكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ الكِتابِ لارَيبَ فيهِ مِن رَبِّ العالَمينَ) [يونس: ٣٧].

الوجه الرابع

استحالة الكذب على النبي ﷺ من جهة حاله؛ فلو كان محمد ﷺ كاذبًا فلماذا يحزن على مَن لم يؤمن به؟

ولم يكن حزنه عليهم حزنًا عاديًا، فقد كان يهلك نفسه بالحزن عليهم، وهذا ما تدل عليه كلمة (باخع) في قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) [الكهف: ٦] وقد دل القرآن في عدة مواضع على حزنه ﷺ على مَن لم يؤمن به، في حين لم يُذكر حزنه ﷺ على من فارقه في نصرته لدعوته مثل: زوجه خديجة رضي الله عنها؛ وإنما يدل ذلك على انتفاء الكذب عنه ﷺ، وأن القرآن لم يكن من عنده، وإنما هو مُبَلّغٌ عن ربه.

الوجه الخامس

من دلالة استحالة الكذب على النبي ﷺ لغة دعوته، وخلوها من التناقض.

فقد دعا ﷺ بلغة جازمة إلى أمور عظيمة كإخباره عن صفات الله تعالى، وتفاصيل العبادات، وما يترتب عليها من أحكام في الدنيا والآخرة، وقصص الأمم السابقة، وخلو التناقض فيما دعا إليه ﷺ، فلم يتراجع في دعوته؛ بل استمر فيما يدعو إليه، مع تكذيبهم له، وما ذاك من تلقاء نفسه بل ثمة تأييد من الله عز وجل لتثبيته ﷺ.

الوجه السادس

من دلالات استحالة الكذب على النبي محمد ﷺ نفي علاقته بالشياطين؛ لأنها لا تنزل إلا على كل أفاك أثيم، أي: كثير الإفك، وهو الكذَّاب، الكثير القول للزور، والإفك بالباطل، والأثيم في فعله، الكثير المعاصي؛ وهذه صفة الأشخاص من الكهنة والسحرة الذين تتنزل عليهم الشياطين وهذه صفة وحيهم. فمن يتصف بالكمال الأخلاقي كالصدق وغيره؛ يستحيل أن تكون له علاقة بالشياطين والكهانة.

الفصل الثالث

دلالة الأمية على نبوءة النبي ﷺ

المبحث الأول

تعريف الأمية

عاش النبي ﷺ بين قومه أربعين سنة وهو الصادق الأمين، يعرفونه حق المعرفة، ثم بعد نبوءته أخبرهم بأمور لم يكن له علم بها ولا قومه؛ فقبل بعثته وإظهار نبوءته لم يُنبئ قومه عن أي شيء مما جاء به بعد نبوءته، فهم لم يسمعوا منه شيئاً قبل ذلك؛ وأي قارئ للكتاب الذي جاء به يلحظ وصفه بأنه أميّ، ووصف قومه بأنهم أميين.

الأميّ في لغة العرب:

نسبة للأم التي ولدته فهو أميّ، لأنه باقٍ على خلقته التي ولدته أمه عليها لا يكتب ولا يقرأ؛ إذ الكتابة والقراءة مكتسبة مُتَعلمة. والعـرب كـانوا لا يكتبون ولا يقـرؤون مـن كتـاب إلا نـادرًا؛ -فغلـب هـذا التشـبيه علـيهم- وكانوا يعتمدون على الحفظ، ويقرؤون مـن حفظهـم؛ وكـان ﷺ يقـرأ مـن حفظه.

فالقراءة نوعان:

١. نطـق بكـلام معـيّن مكتـوب، وهـو منتفي في حق الأمي.

٢. نطق بكلام محفوظ عن ظهر قلـب، وهو لا ينتفي في حق الأمي.

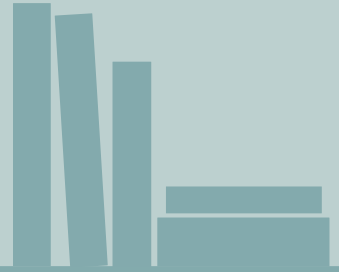

ويتبين من هذا:

أن حد الأمي هو الذي لا يكتب بيده و لا يقرأ من كتاب، لا أنه لا يقرأ من حفظه
فجنس الكتابة؛ أي الذي يكتب ويخط بيديه؛ هذا منتفٍ عن الأمي، وجنس
القراءة: أي الذي يقرأ من كتاب، هذا أيضًا منتفٍ عن الأمي.

المبحث الثاني

الأدلة على أمية النبي ﷺ

تضافرت الأدلة التي تبرهن على أمية النبي ﷺ؛ منها:

أولاً :
الأدلة العقلية:

لم يكن النبي ﷺ متعلمًا ممن كان في زمنه قبل البعثة:

إذ لم تكن القراءة والكتابة أمرًا شائعًا في بيئته ﷺ .

كل طالب فن لابد له من مراحل وطبقات في طلبه، يتـدرج فيهـا من كونه مبتدئًا إلى أن يكون ماهرًا ومتقدمًا.

لو أنه أخفى مقدرته في القراءة والكتابة طوال حياته لكان ذلـك خدعة كبيرة، مما ينافي كمال أخلاقه وصـدقه الـذي اتصـف بـه طوال حياته.

لم يتعلم من أساتذة ولم يطالع كتابًا ولم يتفق له مجالسة أحـد من العلماء؛ فمكة لـم تكـن بلـدة علمـاء، ولـم يغـب عنهـا غيبـة طويلة؛ فلم يسافر إلا مرتين وكانت مدة سفره يسيرة.

لو أنه كان متعلمًا فمن علمه؟ ولماذا لم يصرح المعلم باسمه؟ ولماذا لم يصرح هو باسم معلمه؟

لو كان لمحمد ﷺ معلمٌ؛ فإما أن يكون من الأحناف الذين كانوا على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهم قلة، ولم تثبت الروايات التاريخية أن النبي ﷺ أخذ عن أحد منهم، وكذلك هم لا يعرفون كافة تفاصيل المسائل والدلائل التي جاء بها محمد ﷺ ، أو يكون من اليهود والنصارى أو المشركين؛ ولم يثبت تعلمه ﷺ منهم، كما أنهم يخالفون أساس ما جاء به من دعوة إلى التوحيد وذم الشرك، كما أنهم بعد بعثته عادوه وكذبوه.

المطالبة بمثال تأريخي واحد اجتمعت فيه أمة من الناس فتواضعوا فيما بينهم على الإتيان بمنظومة دينية كاملة مفصلة تستوعب الناس جميعًا في كل زمان ومكان، من غير أن يكون لهم مصدر يستقون منه، وهذا ضربٌ من المحال!

فمن المستحيل أن تجتمع أمة من الناس يضعون منظومة دينية كاملة مُفصلة تستوعب الناس جميعًا في كل زمان ومكان؛ من غير أن يكون لهم مصدر يستقون منه.

ثانيًا:
الأدلة النقلية

لقد أثبت القرآن أميته ﷺ ؛ إذ جاء وصفه بالأمية، وهو معروف عند أهل الكتاب بهذا الوصف في بشارات الأنبياء، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ) [الأعراف: ١٥٧].

ونفي تعلمه من البشر؛ مما يؤكد على أميته، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ) [النحل: ١٠٣]

ومما يؤكد على أمية النبي ﷺ اعتراف قومه بأنه استكتب قصص الأولين، وهذا يدل على أنه لم يكتب بل كُتبَ له، ولم يقرأ بل أمليت عليه، قال تعالى: (وقالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) [الفرقان: ٥]

أن القرآن الكريم لم ينزل على النبي ﷺ مكتوبًا، بل نزل عليه قولاً بواسطة جبريل؛ أي: أنه سمعه؛ لأن القول يُسمع فيقرأه ﷺ من حفظه، ويرتله، ويتلوه على قومه؛ فالقرآن قول تلقاه النبي ﷺ، قال الله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) [المزمل: ٥]

حين يُخبر محمد ﷺ الصادق الأمين عن نفسه بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فهو يُخبر عن أمر مغيب، فمَن الذي أخبر محمدًا بأنه سيبقى أميًا طول حياته؟

ومما يؤكد أنَّ النبي ﷺ لم يكتب طيلة حياته اتخاذه كُتابًا يكتبون له الرسائل إلى الملوك، وكتابًا للوحي يكتبون له.

ولو لم يكن محمد ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب لتسرب الريب إلى ما يُخبر به من غيب، أو ما يذكره من تشريع، أو يتحدى به، بأنه استقاه مما قرأه من كتب، أو ما كتبه ممَن تعلمه، ولصار مُتهمًا بأنه طالع كتب الأولين فحصَّل هذه العلوم.

الفصل الرابع

دلالة الكمال التشريعي لرسالة النبي ﷺ على نبوءته

المبحث الأول

مضمون الرسالة والعقل والفطرة

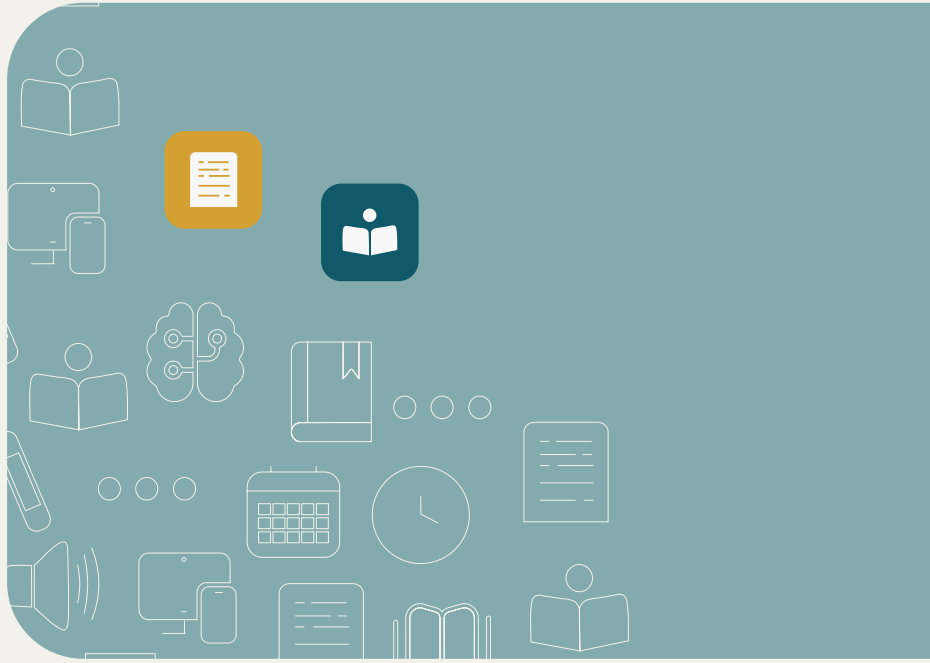

كل ما في الكون مسخر للإنسان؛ فكيف بالمنظومة الشرعية؟ هـي قطعًـا لا تخـالف العقـل والفطـرة ،

ويتضح هذا من جانبين:

الأمـر الأول

فطرية التدين

خلـق اللـه الخلـق وأكـرمهم ونعمهـم، وأودع فـي فطـرهم حـب التدين للإله الذي خلقهـم، فالتـدين فطـرة إنسـانية، قـال تعـالى: (فأقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فطـرَ النَّـاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّـاسِ لا يَعْلَمُـونَ) [الروم:٣٠] فالناس خُلقوا سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة.

وتتجلى فطرية التدين من الحاجة الملحة والضرورية التي يجدها الإنسان في نفسه لإله يكون معه في الشدة والرخاء، فيلجأ مباشرة له كي يُنجيه، وينسى ما كان يعبد من دونه، لأنه يَبغي النجاة ولا مُنجي إلا الله وحده، وفي هذا اللجوء من العبد لله جل جلاله والاستغاثة به دليل على فطرية عبادة الله وحده.

الأمـر الثاني

فطرية التحسين والتقبيح

ميَّز الله جل جلاله الإنسان بالعقل الذي يجعله يُميِّـز بين الخيـر والشر وبين الحق والباطل، وتتميز هذه المعرفة بأنها كليـة قبليـة مجملة، ولا يمكن البتة الاسـتغناء بهـا عمـا جـاء بـه النبـي ﷺ فـلا سبيل لتوجيهها وإدراك تفاصيل التشـريع ومقاصـده وحكمتـه إلا باتباع نور النبوءة.

فالنفس البشرية لا يمكن أن تستقل بمعرفة الطريقة الصحيحة، ومن هنا فالقدح في نبوءة الأنبياء هو قدح في العقل ودلالته، لأن الأدلة العقلية توجب الإقرار بالنبوءة وبما جاء به الأنبياء صلوات الله وسلامهم عليه. فلا سبيل إلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إلا على أيدي الرسل.

مـن الملاحـظ أن المكـذبين بنبـوءة محمـد ﷺ لـم يكـذبوا بمـا جـاء بـه النبـي ﷺ لمخالفته للعقل، أو عدم موافقته للفطر، فإن شيئًا من هذا لم يُذكر عنهم البتـة، وهم حريصون أشد الحرص على إبطال نبوءة محمد ﷺ بأي طريقة، بل إن سـبب تكذيبهم كان ناشئًا عن معارضة ما جـاء بـه محمـد ﷺ لعـادات وتقاليـد مـا عليـه الآباء والأسلاف. هذا وقد جاء القرآن الكريم منبهًا على إيقاظ العقول من سبات الغفلة والتبعية، فدعا إلى التفكر والتعقـل والتـدبر لمـا جـاء بـه النبـي ﷺ لأنـه لا يخالف العقل. ثم إن الأنبياء بُعثوا بتذكير الفطرة بما هو معلوم لهـا وتكميلهـا لا بتغييرها وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة.

ويتبين وجه هذه الدلالة من مقامين:

المقام الأول:

مقام سلبي ويتمثل في أن البشر لا يمكن أن يأتوا من عند أنفسهم مهما اجتمعوا بدين كامل لا يقع فيه أي تناقض، أو مخالفة لعقل وفطرة، ومُحال أن يأتوا بمثل هذا الدين ولا قريب منه، ولم ولن يحصل ذلك أبدًا؛ لأسباب عديدة؛ منها:

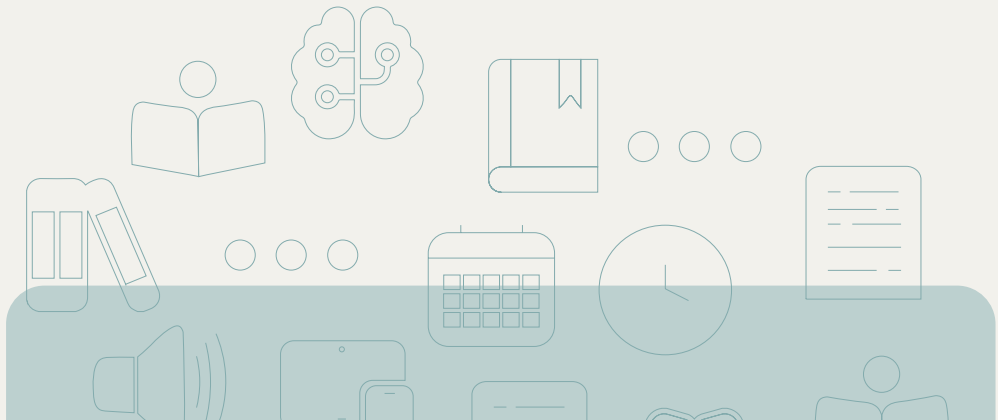

أن عقول الناس متفاوتة في التحصيل والإدراك فليسو سواءً، وهذا معلوم بالضرورة العقلية، فالناس لا يفصل بينهم إلا كتاب مُنَزّل؛ (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) [البقرة: ٢١٣]

عجز النموذج البشري عن تقديم تفسير للظاهرة الإنسانية، ولا يمكن تفسيرها إلا باللجوء لنموذج غير بشري.

تغليب جانب الهوى على العقل البشري في مناحي الحياة؛ والاستجابة للهوى هي مخالفة لمقصود الشريعة الإسلامية التي جاءت لإخراج المكلف من داعية هواه حتى يكون عبدًا لله اختيارًا، كما هو عبد لله بالاضطرار.

تغليب جانب الهوى يؤدي لعدم تحقيق العدل؛ فتغليب الهوى في أحكام الناس وتشريعاتهم لا يحقق العدل والحق للجميع على السواء.

قصور عقول الناس عن استيعاب الحكم من التشريع وعواقبه.

العقول البشرية لا تقدر على تفسير كل شيء لأبعاده؛ فهي بحاجة لرد الأمر إلى خالقها لتدرك حجمها وحاجتها .

المقام الثاني:

هو مقام الإيجاب، فالشريعة التي جاء بها النبي الخاتم محمد ﷺ هي التي كفت وشفت، ونفعت الناس في أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، لأنهم في أمس الحاجة إليها، وهي موافقة للفطرة والعقل، وبين مسائلها توافق لا تناقض فيه أبدًا وإن عرض للبعض؛ فيُرد لأهل العلم لبيانه، وكل عاقل متأمل للشريعة ونظمها يقر أنها من لدن عليم حكيم.

ومما هو ملاحظ أن القرآن اهتم بمخاطبة العقل وإثارته لمعرفة صدق ما جاء به النبي ﷺ؛ والتسليم لما جاء به ﷺ قائم على الضرورة العقلية، وليس هو كما في النصرانية التي تُغيِّب العقل.

المبحث الثاني

بين مضمون رسالة النبي والأنبياء السابقين

ما من نبي من الأنبياء إلا وقد بعثه الله تعالى وهو يدعو إلى الدين الحق، من الإخبار عن كمال صفات الله تعالى، والدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، والنهي عن الشرك، والإيمان باليوم الآخر وبيان حال ومآل من صدق بالأنبياء ومن كذب بهم، وبيان أنهم أنبياء أوحى الله إليهم، وأيدهم بالآيات الدالة على صدق نبوءتهم، والدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن الفواحش، وهذه أصول ثابتة لا تتناقض مع الفطر السوية والعقول السليمة، ولا ينكرها من يثبت جنس النبوءات كأهل الكتاب، فمحمد ﷺ لم يأت بما يخالف من قبله من الأنبياء فهناك أصول لم يختلف فيها أنبياء الله تعالى، بل كلهم دعوا إليها.

والنبي ﷺ يخبر بالأصول التي أخبر بها الأنبياء قبله، وهو لم يأخذ عنهم شيئًا، ولا عن أهل الكتاب، وهذا تبين في دلالة أمية النبي ﷺ سابقًا "**فإذا أخبر هذا بمثل ما أخبر به هذا عن مُرسل واحد من غير تواطؤ ولا تشاعر فيما يمتنع في العادة التوافق فيه من غير تواطؤ، كان هذا مما يدل على صدق كل من الرسولين في أصل الرسالة، وعلى صدق خبر كل من الرسولين فيما أخبر به، إذ كل منهما أخبر بمثل ما أخبر به الآخر**".

وقد يقول قائل: بأن الأنبياء أخذ بعضهم عن الآخر، فمحمد ﷺ أخذ عمن قبله فتأثر به، لكن الأخذ عمن سبق لابد أن يكون بواسطة، فما هي هذه الواسطة؟!

ولو قلنا بهذا القول تنزلاً: فلماذا لم يؤمن اليهود والنصارى بما جاء به النبي محمد ﷺ وهو قد أخذ عنهم؟

لماذا يعلن محمد ﷺ صراحة أن القرآن الذي هو دليل على صدق نبوءته بأنه مصدق لما قبله من الكتب السابقة، ومهيمن عليها؟

قال تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: ٤٨].

بينما لا نجد نصًا واحدًا في الكتاب المقدس يشير إلى أخذ محمد ﷺ عن أهل الكتاب؟

لماذا يتلو محمد ﷺ على الملأ الأعلى قوله تعالى له: { أُوْلَـئِكَ الـذِينَ هَـدَى اللّهُ فبهُدَاهُمُ اقتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]؟!

ثم إن أخذ النبي محمد ﷺ عمن سبقه، فمن سبقه أخذ عن من؟! لابد أن نصل إلى المصدر الذي أخذ عنه جميع الأنبياء، ولو لم نصل إلى ذلك المصدر لأفضى القول بنا إلى سلسلة لا نهاية لها، وهذا التسلسل ممتنع، وهو محال، إذ لابد أن ينتهي الأمر بمصدر من أخذ الأنبياء منه وهو الله تعالى.

والقرآن الكـريم يشـير إلى **حـالتين** لـه بالنسبة إلى ما قبله من الكتب:

- **الحالة الأولى:** أنه مؤيد لبعض ما في الشرائع، مُقرر لها في كل حكم كانت مصلحته كلية لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدق ومقرر.

- **الحالة الثانية:** أنه مبطل لـبعض مـا فـي الشـرائع السابقة، وناسخ لأحكام كثيـرة مـن كـل مـا كانـت مصالحه جزئيـة مؤقتـة مُراعـى فيهـا أحـوال أمـم خاصة.

فلا ينبغي عزو كل اتفاق بين مضمون ما جاء به الأنبياء إلى تأثير السابق في اللاحق، وتأثر المتأخر بالمتقدم، لأن التأثر قدر زائد على مجرد الموافقة، كما أن النبي ﷺ لم يصرح بأنه قد تأثر بالأنبياء السابقين، ذلك أن وصف التأثر لا يطلق **إلا إذا اجتمع شرطان:**

"**الأول:** أن يكون القول من خصائص المتقدم، **والثاني:** أن نعلم أنه إنما قال به لأنه أطلع عليه في كلام المتقدم، ولم يُنشئه من نفسه، فإذا انتفى أحد هذين الشرطين فإنه لا يصح إطلاق التأثر حينئذ".

ومما يبرهن لنا على إلهية مصدر ما جاء به الأنبياء الحقيقة التأريخية، فكل من اطلع على التوراة والإنجيل، أو كان له علم بما عند أهل الكتاب، أو كان على الحنيفية السمحة، يعلم بهذه الأصول المتفق عليها قطعًا وإن لم يعمل بها.

إن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ يشير إلى علم أهل الكتاب بنبوءته ﷺ حين يحتج على مشركي العرب بصدق نبوءته، قال تعالى { أَوَلَمْ يَكُن لهُمْ آيةً أن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيل} [الشعراء :١٩٧].

وقال: { فإِن كُنتَ فِي شكٍّ مِّمَّا أنزَلْنَا إِلَيْكَ فاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قبْلِكَ} [يونس: ٩٤]. وغيرها من الآيات التي تذكر شهادة الكتب المتقدمة بمثل ما أخبر به النبي ﷺ، وهذا دليل على صدق نبوءتهم إذ اتفقوا فيما جاؤوا فيه من أصول من غير تواطؤ ولا تشاعر.

ومن خلال استقراء القرآن الكريم تؤكد عدة آيات على اتفاق الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم في أصول المسائل الكلية، والتي تبرهن على وحدة مصدرها الإلهي، **فمن هذا:**

الإسلام بمفهومه العام، هو محور دعوة الرسل، قال تعالى: {إِنَّ الـدِّينَ عِنـدَ اللّهِ الإِسْلاَم} [آل عمران: ١٩] والإسلام هو ما وصـى إبـراهيم عليـه السـلام بـه بنيه، قال تعالى: {إذ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـالَمِين * وَوَصَّـى بِهَـا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوب يابنِيَّ إِنَّ اللّـهَ اصْـطفى لَكُـمُ الـدِّينَ فـلاَ تمُـوتُنَّ إَلاَّ وَأنـتُم مُّسْلِمُون} [البقرة: ١٣١-١٣٢].

الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، ونفي عبادة ما سواه، هي دعوة جميع الأنبياء -صلوات ربي وسلامه عليهم-، قال تعالى: {وَلَقدْ بعَثنَا فِي كُلِّ أمَّةٍ رَّسُولاً أنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطاغُوتَ} [النحل: ٣٦].

وهي دعوة كل نبي لقومه، يقول الله تعالى عن نوح عليه السلام: {لَقَدْ أرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قوْمِهِ فقالَ يَا قوْم اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يوْمٍ عَظِيم} [الأعراف:٥٩].

اتفق جميع الأنبياء على الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، ولقد تنوعت الدلالات القرآنية على ذلك، **ومنها:**

- الاستدلال على إمكان البعث ببدء الخلق، فمن خلق قادر من باب أولى على البعث، يتبين في قول نوح لقومه، يقول الله تعالى: {وَاللَّهُ أنبَتَكُم مِّنَ الأرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} [نوح: ١٧-١٨].
- إخفاء العلم بقيام الساعة، وبيان الحكمة من ذلك، قال تعالى لموسى: {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفسٍ بِمَا تَسْعَى} [طه:١٥].

- بيان مصير من كفر بالله تعالى يوم القيامة، يقول تعالى عن موسى: {وَلَقدْ أرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبين * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيهِ فاتَّبَعُواْ أمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أمْرُ فِرْعَوْنَ برَشِيد * يَقدُمُ قوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فأوْرَدَهُمُ النَّار وَبئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُود} [هود:٩٦-٩٨].

- بيان الجزاء والحساب الذي يكون في الآخرة، وهذا وارد في صحف إبراهيم وموسى: { بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأبْقى * إنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى: ١٦-١٩].

- ربط عمل الدنيا بالآخرة، يتبين في قول موسى عليه السلام: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ} [الأعراف:١٥٦].

- ويتبين اليوم الآخر عند اليهود والنصارى، كما يبينه القرآن الكريم، قوله تعالى: {قلْ إِن كَانتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاس فتَمنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُم صَادِقِين} [البقرة: ٩٤].

- ويبين الله أصول العبادة لدى أهل الكتاب، قال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون * يُؤمِنُونَ باللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيسارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِين} [آل عمران: ١١٣-١١٤].

- الإخبار عن علامات الساعة، كالإنذار من فتنة المسيح الدجال، والتبشير بمحمد ﷺ.

ومما جاء به جميع الأنبياء الإيمان بالملائكة، والجن، وهو مما اتفقوا عليه من الأصول، والأمم السابقة يقرون بوجودهم، فالله تعالى حين أقسم بالصافات والذاريات والمرسلات وهم الملائكة، ذكر المقسم عليه، فقال تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِد} [الصافات: ٤] فالله تعالى لم يقسم على وجود الملائكة ولا وجوده، لأن الأمم معترفة بوجود الملائكة، ووجود الله تعالى، بخلاف توحيد الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر.

والقرآن يخبرنا أن الرسل جميعًا حملوا ميزان العدل والقسط ، قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥].

ومما هو متفق عليه بين جميع الأنبياء الجانب التعبدي، نلاحظ أن الصلاة والزكاة والصيام والحج جاء بها الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، ومن ذلك قوله تعالى: {وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانوا لَنَا عَابِدِين} [الأنبياء: ٧٣].

ومما هو متفق عليه بين الأنبياء أيضًا ذكر الله تعالى، ومنه الاستغفار، فنـوح -عليه السلام- يوصي قومه بالاستغفار، قال تعالى: {فقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنـهُ كَانَ غفـَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لكُمْ أَنْهَارًا} [نوح :١٠-١٢].

وليست الأعمال الظاهرة هي المتفق عليها فحسب، بل حتى أعمال القلوب مما هو متفق عليه بين الأنبياء، فالتقوى مما هو مأمور به، قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أنِ اتَّقُواْ اللّهَ} [النساء: ١٣١].

ومما اتفقت فيه الأنبياء أيضًا أنهم بينوا المنكر والباطل ودعوا إلى محاربته وإزالته، سواء أكان عبادة أوثان، أو استعلاء في الأرض بغير حق، أو انحرافًا عن الفطرة كفعل قوم لوط، أو عدوانًا على البشر وأحوالهم بقطع الطريق والتطفيف بالميزان، وكل هذه أصول متفق عليها بين جميع الأنبياء قال تعالى: { شرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نوحًا وَالذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُ يَجْتَبي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} [الشورى: ١٣].

إن اتفاق جميع الأنبياء على الأصول الكلية، وعدم مخالفة واحد منهم للآخر يدل على وحدة مصدرها من جهة، ومن جهة أخرى على صدق الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، ومنهم محمد ﷺ.

المبحث الثالث

مضمون الرسالة والحقائق الكونية والعلمية

إن القـرآن الكـريم هـو كتـاب هدايـة وتشـريع للبشـرية كـي تعبـد ربهـا عـلى بصـيرة وبينـة، وقـد تضمن الإخبـار عـن حقـائق كونيـة وعلميـة لبيـان عظيم قدرة الله تعالى.

يتبين هذا جليًّا من خلال سياق الآيـات لكـل مـن يقرأها قراءة كاملـة لا ابتسـار فيهـا، **ومـن أمثلـة ذلك ما يلي:**

الآيات التي أخبرت عن مراحل خلق الإنسان، يقول الله تعالى: {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُـمَّ جَعَـلَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَأنزَلَ لَكُم مِّنْ الأنْعَامِ ثَمَانِيَـةَ أزْوَاجٍ يَخْلُقُكُـمْ فِـي بُطُـونِ أمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ذلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فأنَّـى تُصْرَفُون} [الزمر:٦].

الآيات التي أخبرت عن إنبات الزرع، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام:٩٩].

الآيات التي أخبرت عن منافع بعض الحيوانات، بيّن القرآن الكريم أن الله تعالى خلق الحيوانات لينتفع منها الإنسان، ليستدل بقدرة خالقها على إفراده بالعبادة إن كان ممن يقر بوجود الله تعالى، وإن كان ممن ينكر وجود الرب فيستدل بها على أن من أوجد هذه الحيوانات هو من أوجده.

الحقائق الكونية الواردة في القرآن مفهومة بحسب معناها اللغوي لمن خاطبهم القرآن، كما أنها بيّنة الدلالة في المراد من ذكرها، بشكل واضح بيّن يتبين من سياق الآيات، فلا مشقة فيها ولا تكلف، ولو كان المراد بها إثبات نظريات علمية توصل إليها العلم التجريبي في العصر الحديث لكان هذا من تكليف ما لا يطاق معرفته وفهمه بخطاب يعجز الناس عن إدراكه.

إن المخاطبين بنصوص القرآن والسنة كانوا يعرفون أن ما ذكره لهم الرسول ﷺ، **على نوعين:**

١

أمور يعرفون صحتها حسًا وعقلاً كما يعرفون معناها، وإنما يخاطبهم بها لينبههم على لوازمها، كالاحتجاج على المشركين بدلائل الربوبية في الخلق والتدبير.

٢

أمور يفهمون معناها بمقتضى لغتهم، لكنهم لا يعرفون صدقها حدسًا، وقد يستبعدونها عقلاً أو يظنون استحالتها، والمؤمن يصدقها بمقتضى خبره لا غير، فهذه مطالب يستدل عليها إجمالاً بدلائل النبوة، ولا تنقلب إلى دلائل إلا إذا ثبتت بمصدر آخر صحيح موافق للنبوة، أو وقعت وفق ما أخبر.

إن التركيز على العلم التجريبي و الإكثار منه خاصة في العصر الحديث قد أثّر سلبًا على منهج الاستدلال على قضية النبوءة، فنجم عنه فريقان:

فريق رفض بعض الغيب كآيات الأنبياء الكونية بدعوى العلم التجريبي، وحصروا دلالة صدق النبي ﷺ في القرآن فقط، وهذا حاد عن الصواب.

وفريق استفاد من العلم التجريبي بحماس لإثبات نبوءة النبي ﷺ وهو ما يعرف ب(الإعجاز العلمي)، وعليه ملاحظات منهجية لابد من تصحيحها، **منها:**

- مصـــطلح (الإعجـــاز و المعجـــزة) مـــن المصطلحات الحادثة، التي سببت خلطًا كبيرًا فـي دلائـل النبـوءة، وهـي مقرونـة بالتحـدي، وهذا لم يقع إلا في نظم القرآن وأسلوبه.

- ســبق إخبــار النبــي ﷺ للحقــائق العلميــة والكونية، وهذا غير صحيح لأنه يقلب الدلالة.

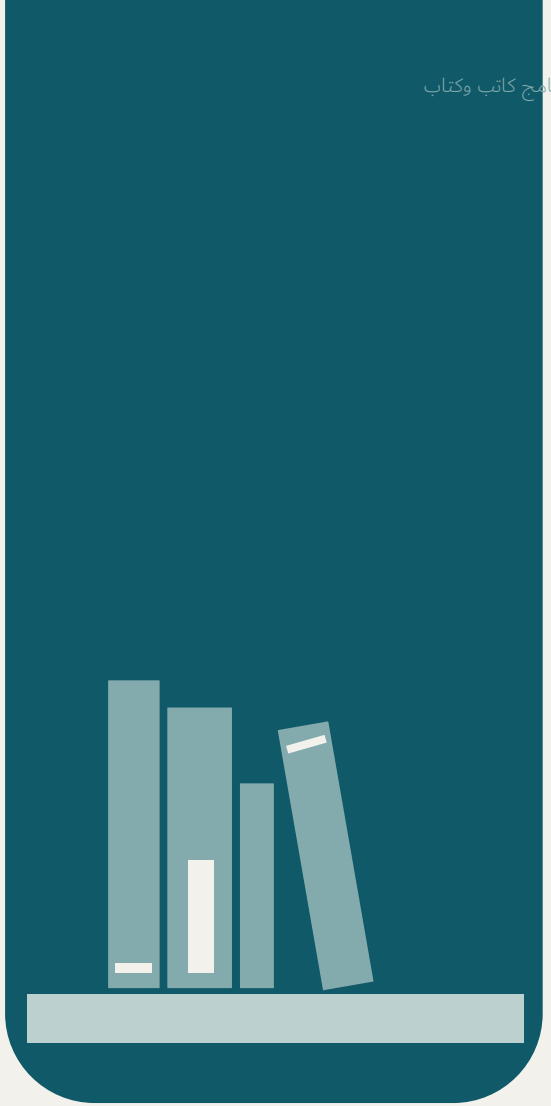

السؤال المهم: لماذا التركيز على العلم التجريبي لهذا العصر؟

العصر الذي نعيشه هو عصر المكتشفات الحديثة المتسارعة بشكل ملحوظ، وقد حاول البعض الاستفادة من العلم التجريبي في إثبات مسائل الدين، وهذا ما يعرف بالتفسير العلمي الذي كان الخلاف حوله مشهورًا ومعروفًا بين مؤيد له، وبين معارض له، وهو مقدمة للإعجاز العلمي، و مفاده أن تتوافق معاني الآيات التي أشارت إلى الكون مع العلوم التجريبية، فيؤول معنى الآيات إلى النظريات العلمية.

أسباب الفتنة بالعلم التجريبي، منها:

- الشعور بالهزيمة النفسية أمام الغرب المتقدم ماديًا بظاهر علوم الحياة الدنيا.
- غياب الاستعلاء بالإيمان واليقين من واقع أمة الإسلام، واهتزاز الثقة بدلائل العقيدة؛ لأنها في نظر بعض الناس تقليدية.
- إغفال كنوز الكتاب والسنة الصحيحة والتي بها يتحقق الاكتفاء المنهجي.
- التأثر بالمناهج الغربية، واستخدام المنهج الإسقاطي والتلفيقي، مع تجاهل إخفاق الفكر المادي في تفسير وفهم الظواهر الثلاث الكون والحياة والعقل.

ولقد غاب عن هؤلاء القوم المفتونين بالعلم التجريبي الذين بدؤوا بأسلمته أنّ المكتشفات العلمية لم تصل إلى النهاية، لعدم الإحاطة بخفايا العلوم التجريبية وهذا ما يصرح به علماء الغرب الذين أحرزوا التقدم فيه، ولكل عصر مكتشفاته، فما وصل إليه عصر من العلوم يكون أقصى ما وصل إليه من العلم في ذلك العصر؛ ولكنه ليس أقصى ما وصل إليه العلم الإنساني.

وهكذا كان اتساع نطاق المعلومات هو بنفسه اتساعًا لنطاق المجهولات.... فلا يسع العقل إلا التسليم بأن وراء كل مرحلة يقطعها من عالم الشهادة مراحل أخرى من عالم الغيب، وصدق القرآن حين يقول: {وَمَا أوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلا قلِيلاً} [الإسراء: ٨٥]

العلاقة بين العلم والدين: من الضرورة بمكان أن نبيِّن العلاقة بين العلم والدين؟!

العلاقة بين العلم والدين الإسلامي، علاقة تكاملية متناسقة لا صراع ولا تناقض ولا تعارض بينهما؛ لأن الدين يشتمل على حقائق أساسية متصلة بالعلم؛ فمن المحال حصر العلم في العلم التجريبي فقط ووضعه مقابل الدين.

إن وضع الدين مقابل العلم التجريبي منهج غير صحيح؛ لأن الدين الحق يعترف بالمنهج العلمي التجريبي وسيلةً للمعرفة، ولكنه ليس وسيلةً لكل المعارف، ومن يعتمد على المعرفة الحسية ويرفض المعرفة العقلية هو يرفضها بعقله لا بحسه.

مـا سـبب مقابلـة العلـم التجريبـي بالديـن؟

في ظروف كنسية غيبت العقل والعلم، صوِّرت العلاقة بين العلـم والعقل والدين على أنها علاقة تناقض وصراع، ففي حين أن الدين غير قابل للتغير فالعلم قابل للتغير؛ فالدين كما يزعمون من أخطر معوّقات التحضر والتطور.

ولا تعارض بين العلم والدين؛ لأن الله وحده خالق الكـون ومنـزل الكتب وباعث الرسل.

نشأ العلم التجريبي في الغرب نتيجة ثورة علمية على طغيان الكنيسة الذي كان يستتر برداء الدين في العصور الوسطى ليهيمن على البشرية، وتحافظ الكنيسة على قدسيتها، فأخذت تحارب العلم والعلماء باسم الدين، وهنا قامت ثورة العقل الأوربي (حركة الإصلاح البروستانتي)، فعارضوا الطقوس الدينية، وسلطة البابا المطلقة، ليتخلصوا من حجر العثرة الذي كان يقف أمام البحث العلمي المستقل القائم على البحث والتجربة.

وبدأوا الاهتمام بإحياء الآداب اليونانية والرومانية التي اهتمت بالإنسانيات، ورد القيم إلى العقل لا الدين، وبدأ الاهتمام كذلك بالطبيعة الحافلة بالحقائق، وانبعثت صيحة روجن بيكون بتأكيد أهمية العلم التجريبي.

فهذا الاهتمام البالغ بالعلم التجريبي في عصر النهضة هو رد فعل للعصور الوسطى.

وبعد التحرر من قيود الكنيسة التي فرضتها على العقول، نُحِّيَّ الدين عن الفكر الإنساني.

ما مدى ملاءمة العلم مع الدين مع الكتاب المقدس؟

فرضت الكنيسة آراءً علمية غير قابلة للنقاش قهرًا، حيث احتوى الكتاب المقدس آراءً علميّةً دسها بعض رجال الدين أثبت العلم الحديث عدم صحتها.

يقول موريس بوكاي: "وجدت في سفر التكوين وحده مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا"؛ فاحتدمت حدة الصراع المفتعل بين العلم والدين، بسبب هذا التناقض.

في هذه الأثناء احتك جيل من أبناء المسلمين بالغرب فُتنوا بالمنهج التجريبي، مع شعورهم بالهزيمة النفسية إزاء تقدم الغرب، نتج عن هذا إنكار كثير من أمور الدين التي ترتكز على الغيب، كمسألة النبوءات وما يتعلق بآياتهم؛ فظهر التأويل وفقًا للعلوم التجريبية وأعتُمِد على المنهج النقدي لكل الحقائق الدينية.

وتناسى بعض المبهورين بحضارة الغرب المادية، أنّ الدين الإسلامي لايرفض الحقائق العلمية وليس بينهما تعارض، بل هو يهتم بالعقل ويلفت النظر إلى حقائق الكون ليزداد إيمانه بربه.

فالعلاقة بين العلم والدين في الأدبيات الإسلامية تختلف تمامًا عنه في الأدبيات الغربية.

إنَّ الاستدلال بالعلم التجريبي على صدق نبوءة النبي ﷺ طريقه طويل شاق عسر، ودلالته ظنية محتملة مضطربة مثل: دليل الحدوث، ومما لا شك فيه أن تطويل طرق الاستدلال من غير حاجة مذموم، وهو على خلاف الطريقة الشرعية في بناء الأدلة، كما أنه يتنافى مع الوضوح والبيان الذي اتسمت به أدلة النبوءة مع وفرة الدلائل والبراهين على صدق النبوءة.

مـاذا لـو اختفـت المكتشـفات العلميـة الحديثة؟! أو لم تظهر؟! هل هذا يتفـق مع سمات أدلـة النبـوءة التـي لا تقتصـر عـلى زمـن دون آخـر، بـل هـي مسـتمرة باقية؟!

المكتشفات العلمية قد تهمل حقائق هامة إهمالاً تامًا، لأن العقول تميل بطبيعتها إلى نبذ الأشياء التي لا تتلاءم مع إطار معتقدات العصر الحديث، فالعلماء بشر قبل كل شيء، وهم غارقون في أفكار بيئتهم وعصرهم، وهم لم يهتموا بالتكوين العقلي للإنسان ولا بمطالبه الدينية.

وعليه فإن استنساخ المنهج الغربي ومحاولة تطبيقه وأسلمته على العلوم الدينية لن ينتج لنا منهجًا معرفيًا متكاملاً، بل سينتج لنا منهجًا ملفقًا يتسم بالخداج، فالحقول الدلالية متباينة بين دلائل العلم التجريبي ودلائل صدق النبوءة، فالاستدلال بالمكتشفات العلمية الحديثة يدل صراحة على وجود الله وإمكان البعث، وهذا ما نبه إليه القرآن، ولا يدل مباشرة على صدق نبوءة النبي ﷺ.

فالقيام بنقل الأفكار دون أن نمعن النظر في المنظومة الفكرية المتكاملة بمضامينها الفلسفية، أفقد المقدرة على الربط بين الأفكار، وتطوير موقف نقدي اتجاهها، وهذا قصور في الفكر التحليلي العربي.

إن المنطلقات الفكرية تتشابه كثيرًا بين المتكلمين الذين فتنوا بمنطق اليونان، وبين المعاصرين الذين فتنوا بالعلم التجريبي، فكلاهما يستند على العقل في تأويله، والرد على هؤلاء يكون بأنه ليس هناك تعارض بين النقل ولا العقل ولا العلم، فوحدة مصدرها تنفي التناقض عنها، فمنزل النقل هو خالق للعقل موجد للكون والعلم باعث للأنبياء، وعدم المخالفة بين الحقائق الكونية والعلمية، وما أخبر به الأنبياء هو دليل على صدق نبوءتهم، لا أن ما جاء به الأنبياء يوافق الحقائق الكونية والعلمية.

وعدم مخالفة ما جاء به النبي ﷺ للعقل والفطرة والأنبياء السابقين و للحقائق العلمية والكونية هو أحد الأدلة التي تبرهن على صدق نبوءة النبي ﷺ.

الفصل الخامس

دلالة كثرة الغيوب التي أخبر بها النبي ﷺ

المبحث الأول

الإخبار عن أمور غيبية مستقبلية

حقيقة النبوة هي الإخبار عن الغيب ومن لم يخبر بالغيب لا يكون نبيًا، وكان الأنبياء يخبرون عن أمور غيبية جملة وتفصيلاً ، منها الغيبيات المستقبلية، وهو أحد الأدلة المشتركة بينهم، **ومما أخبروا به:**

إخبار عيسى عليه السلام لقومه بما يأكلون ويدخرون مما لم يعاينه ويشاهده، وهو أمر غيبي قال الله تعالى عنه: {وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}. [آل عمران: ٤٩]

إخبار يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن بما يأتيهما، قال الله تعالى: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}.[يوسف:٣٧]

إخبار جميع الأنبياء عن فتنة المسيح الدجال، يقول النبي ﷺ: (ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب) أخرجه البخاري ومسلم.

إخبار الأنبياء السابقين وبشارتهم بنبوءة محمد قال الله تعالى:{وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ ميثاق النَّبيِّينَ لَمَا آتيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمةٍ ثمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّق لمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قالَ أأقرَرْتُمْ وَأخَذتمْ عَلَى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أقرَرْنَا قالَ فاشْهَدُوا وَأنا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِين}. [آل عمران: ٨١]

إخبار النبي ﷺ عن الغيوب الكثيرة التي وقعت في المستقبل كما أخبر، **ومما ورد في القرآن من ذلك:**

- إخباره أنه سيُغلب الكفار المكذبين بنبوءته، قال تعالى: {قل للذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْس المِهَادُ } [آل عمران: ١٢].
- إخباره أن الروم ستغلِب، قال تعالى: {غُلِبَتِ الرُّومُ } [الروم: ٢].
- إخباره عن تحقق رؤياه بدخول مكة، قال تعالى: {لَقَدْ صَدَق اللَّهُ رَسولَهُ الرُّؤيا بالحَقِّ} [الفتح: ٢٧].

- إخباره عن هلاك رؤوس الكفر، مثل أبو لهب وزوجته، والوليد بن المغيرة، قال تعالى: {تبَّت يدَا أبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [المسد:٢].

- إخباره بما سيكون من العاقبة والنصرة له ولمن آمن به وصدقه، والنصرة والعاقبة تكون بالحسي المشاهد، المتمثل في نجاة الأنبياء وأتباعهم، وهلاك من كذبهم. وتكون بالنصر المعنوي بظهور الحجج والبراهين.

- إخباره عن اليهود بأنهم لن يتمنوا الموت، قال الله تعالى: {قلْ إِن كَانتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاس فتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٩٤].

- إخباره بحفظ القرآن الكريم، فالواقع إلى يومنا هذا يصدق ذلك، قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر:٩].

وهذه الأمور وغيرها تدل بكثرتها وتعددها وتحققها على إعلام الله تعالى للنبي بها، حيث لا يمكن أن يتوصل لها بالاكتساب، وهذا دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ .

المبحث الثاني

إخباره عمّا يُسأل عنه من المغيبات.

كان النبي محمد ﷺ يقول: (سَلُوني عمّا شئتم)
فكان يقول مقولته هذه بكل جرأة، وهو لا يعلم ما هي الأسئلة ولا إجابتها، وحينما يُسأل كان يجيب دون أن يبرح مكانه، وإن أبطأ بالجواب عنهم حينًا، فإنه في كلتا الحالتين لا يؤثر عنه أنه راجع أحدًا، ولا قال لهم أمهلوني أراجع ما تسألون، بل كان يجيبهم بكل طمأنينة، و صدق، واثقًا بإجابته؛ فدل ذلك على صدق نبوءته، وأن الله يوحى إليه، إذ لا تتأتى هذه الإجابات لكاذب مهما بلغ من الذكاء والفطنة.

فمن تلك الأسئلة:

أسئلة عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-،حين قال للنبي ﷺ : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟، وما أول طعام أهل الجنة؟، وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟... فقال: (أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت)، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

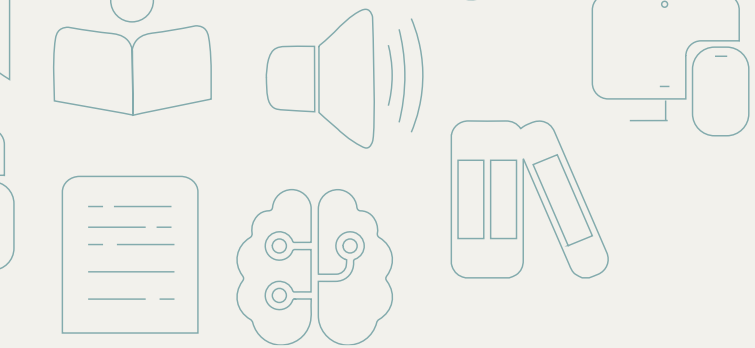

ومن ذلك سؤال المشركين وأهل الكتاب له عمن مضى من الأمم، مثل سؤالهم عن ذي القرنين قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا} [الكهف:٨٣]، وقد كانوا يسألون عن أمور غيبية كسؤالهم عن الروح قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً } [الاسراء:٨٥]، وسؤالهم عن وقت الساعة قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} [الأعراف: ١٨٧].

ومن الأسئلة التي وجهت للنبي ﷺ ، حينما (سأل أهل مكة أن يريهم آية؛ فأراهم انشقاق القمر) ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه، أشار هو إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة في العالم العلوي، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا يقدر أن يسحر من ليس شاهدًا مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها، بل لكل آية تأتيهم، ولهذا قال تعالى: {وإن يروا آية يعرضوا }[القمر:٢].

ومن الأسئلة كذلك سؤالهم النبي ﷺ عن بيت المقدس بعد أن أخبرهم بحادثة إسرائه، فنعته لهم نعت من يراه بعينه،(قالوا له: تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ قال: فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس علي بعض النعت، قال فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى جعل دون دار غفار، أو عقيل، قال: فنعت وأنا أنظر إليه قال: وكان في القوم من قد رآه، فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب،... وقالوا له: كم للمسجد باب؟ قال: ولم أكن عددتها، فجعلت أنظر إليه وأعدها بابًا بابًا) وفي أسئلتهم وإجابته دليل على صدق نبوءته، لأنهم قد علموا أنه لم يره قبل ذلك، فصدقه من رآه منهم، فكان ذلك دليلاً على صدقه في المسرى، فلا يستطيعون تكذيبه وكان ذلك زيادة في إيمان المؤمن، وزيادة في شقاء الجاحد المعاند.

فتبين أن الأسئلة الموجهة للنبي ﷺ امتحان له، ليعرفوا هل هو صادق أم كاذب في دعوى نبوءته؟ و في إجابته إخبار لهم بأن إجابته كانت بوحي من الله تعالى، فهو لا يعلم عن هذه الأسئلة شيئًا من ذي قبل، ولو أنه أخذها من أهل الكتاب لبادروه مباشرة بالإفصاح بأنه أخذها منهم، أو من شيوخهم، ولأظهروا أمره للناس ولم يصمتوا؛ لأن العلاقة بينه وبين أهل الكتاب لا سيما اليهود لم تكن علاقة ود، ففي الأسئلة الواردة من أهل الكتاب والمشركين له دليل على صدق نبوءته ﷺ.

المبحث الثالث

إخباره عن أمور غيبية ماضية

أخبر النبي ﷺ بأمور غيبية ماضية منها:

الإخبار عن تفاصيل عقائد اليهود والنصارى في ذات الرب تعالى، قال تعالى : {وَقالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقالَت النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابنُ اللَّهِ ذَلِكَ قوْلُهُمْ بِأفوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قوْلَ الذِينَ كَفرُوا مِنْ قبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفكُونَ}ا [التوبة:٣٠]، وقال تعالى: {وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَة غُلتْ أيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بمَا قالُوا} [المائدة:٦٤].

الإخبار عـن الأمـور الغيبيـة الماضـية كقصـص الأنبيـاء السـابقين جملـةً وتفصيلاً، قال تعالى: {ذلِكَ مِنْ أنبَاءِ الْغَيْب نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنـتَ لَـديْهِمْ إِذْ يُلْقُون أقلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَـمَ وَمَا كُنت لَديهِمْ إِذْ يَخْتَصِـمُونَ} [آل عمران: ٤٤].ولا علم له بها إلا عن طريق الوحي من اللـه تعـالى، لأنـه لـم يتعلمها من بشـر، ولـم يشـهدها فـي وقتهـا؛ فالعقـل يقتضـي والسـياق ضرورة أن هذه القصص لم تكن من إنشائه، وأهـل الكتـاب لـم يكـذبوه فيما يقصه رغم عدائهم له، بل بعضهم آمن به مثـل عبداللـه بـن سـلام، قال الله تعالى: {قلْ أرَأيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَـاهِدٌ مِّن بَنِـي إِسْـرَائِيلَ عَلَـى مِثلِـهِ فـآمَنَ وَاسْـتَكْبَرْتُم إِنَّ اللَّـهَ لا يَهْـدِي الْقـوْمَ الظالِمِينَ} [الأحقاف: ١٠].

وهذه القصص التي كان يخبر عنها ﷺ لـم يعتـرض عليهـا أحـد مـن زمنـه، وإنما اعتراض من اعترض من كفار قريش كان على أن القصص التـي كـان يقصها عليهم، هي ضرب من الأسطورة المنسـوجة مـن الخيـال، الـذي لا واقع ولا حقيقة له، لذا قالوا عن القصص التي كان يخبر بها النبي ﷺ بأنها أساطير، ذلك أن بعض مشركي العرب لم يكونوا يؤمنون بالنبوءات أصلاً.

وللأسطورة تعريف في المعنى العربي والغربي، إلا أن معناها عند الحداثيين العرب أنها مجموعة من الخرافات والأقاصيص تحتوي على جزء ولو ضعيف من الحقيقة ثم يكبرها الخيال وينميها، وهذا الفارق بين الأسطورة والخرافة.

وهذا التفريق ضرب من التمويه، فيُفهم من قراءة الحداثيين إنكار شخصيات الأنبياء التي قصها لنا النبي ﷺ وأنها رموز لشخصيات خيالية!

وهذا القول هو ذاته قول الكفار، وهو ذاته المعنى الذي يستخدمه الغربيون لإنكار ما هو غيبي، وهي تكرار لقول الفلاسفة والباطنية القائلين بأن الوحي من خيال النبي ﷺ فقط، وأن النبوءة لا تتطلب ذهنًا كاملاً وإنما خيالاً خصبًا فقط، والوحي صوت باطني نتيجة لعملية الاختزان الذهني الكبير عبر التردد على غار حراء، فآلت النبوءة والقصص المؤسطرة إلى الخيال الذي لا حقيقة له.

إن القصص القرآني الذي نزل لم يكن الهدف منه التندر والتجمهر، بل كان الهدف منه هو أخذ العبـرة والعظـة وتسـلية النبـي ﷺ للـربط عـلى قلبـه، وتثبيته بأن ما يلقاه من تكذيب قومه هو سُنة الأولـين مـن الرسـل قبلـه، ليس هذا قاصرًا عـلى النبـي محمـد فحسـب، بـل كـل مـن سـلك سـبيل الأنبياء والمرسلين من العقلاء يجد العبرة والعظة، يقول الله تعالى: {لقد كان في قصصهم عبـرةٌ لأولـي الألبـاب}[يوسـف: ١١١]والاعتبـار بالقصـة لا يحصل إلا إذا كانت خبرًا عن أمر وقع، لأن ترتب الآثار على الواقعات ترتب طبيعي فمن شأنها أن تترتب أمثالها على أمثالها كلما حصـلت فـي الواقـع، وذلك بخلاف القصص الموضوعة بالخيال والأكاذيب فإنها لا يحصـل بهـا اعتبـار لاسـتبعاد السـامع وقوعهـا لأن أمثالهـا لا تعهـد، مثـل مبالغـات الخرافات وأحاديث الجن والغول عند العـرب وقصـة رسـتم وأسـفنديار عند العجم، فالسامع يتلقاها تلقي الفكاهات والخيالات اللذيذة ولا يتهيأ للاعتبار بها إلا على سبيل الفرض والاحتمال، وذلك لا تحتفظ به النفوس.

كما أن القصص القرآني كلما قُـرئت تجددت، ولايزال الناس يقرؤونها ولم تبل ولم تخلق مع كثرة ترددها لأنها وحي من الله تعالى.

يتبين من المباحث السابقة:

الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى وحده، وهو يُظهر منه لمـن ارتضـى من رسله قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَـدًا * إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ}[الجن: ٢٦-٢٧]

الأنبياء ينفون عن أنفسهم علم الغيب، قال تعالى: {قُـلْ لا أقـولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [الأنعام: ٥٠].

لو كان محمد ﷺ يعلم الغيب دون وحي لكان حاله على خلاف ما هو عليه من استكثار الخير واجتناب السوء والمضار، لذا يقول الله تعالى عنه: {قل لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أنا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لقَوْم يؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٨٨]. فالإخبار بالأمور الغيبية هو أحد أدلة صدق النبوءة وليس هو الدليل الوحيد على صدقها، فهي تثبت كذلك بأدلة أخرى.

مع كثرة ما يخبر به النبي ﷺ من الغيوب الماضية والمستقبلية تجدها كلها متشابهة متسقة يصدق بعضها بعضًا سالمة من التناقض، قال تعالى: {أفلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢].

الإخبار عن الأمور الغيبية لا يكون إلا لنبي، أو من يُخبر عن نبي، ومحمد ﷺ لم يأخذ شيء من الأنبياء لأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب.

تحقيق بعض نبوءات النبي ﷺ التي أخبر وأجاب عنها دلالة على صدقه في باقي أخباره.

الإخبار عن الأمور الغيبية دليل مشترك بين الأنبياء يدل على صدقهم.

ما تحقق وقوعه من أخبار الأنبياء يشفع ويعضد لما لم يقع بعد.

إخباره ﷺ بالتفاصيل الدقيقة عن أمور غيبية ماضية يؤكد ويبرهن أن مصدر هذه الغيوب هو الله تعالى وحده، قال تعالى: {وَمَا كَانَ هَذا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس: ٣٧].

إخبار النبي ﷺ بالمغيبات مع التكرار والإصابة والكثرة أمر خارق لطبيعة البشر.

قد يقال أن الإخبار بالمغيبات الماضية ليس دليلاً على صدق النبوة لأن علم غير الأنبياء بها ممكن؟

فيقال: بما أنه لم يكن يعيش بين ظهرانيهم، ولم يكن عنده علم بها فإخباره خروج عن العرف إلى ما ليس بعرف فصار دليلاً على نبوءته.

الفصل السادس

دلالة النظم والأسلوب على نبوءة النبي ﷺ

المبحث الأول

مفارقات في النظم والأسلوب بين القرآن وغيره

أولاً:

بيـان وإيضـاح لفصـاحة العرب:

ميز الله الإنسان عن سائر الكائنات بالنطق المعبِّر عن الفكر، ثم اختص العرب مـن جـنس الإنسـان بالفصـاحة والبلاغـة، ومـن العرب برزت قريش؛ إذ كانت أفصحهم ألسنة، وأصفاهم لغة.

وقـد كـان الاحتجـاج بلغـتهم فـي الصـحة والفسـاد عنـد أهـل الصناعة العربية معمولاً به، فقـد كانـت تعـرض أشـعار العـرب عليهم فما قبلوا منها كان مقبولاً وما ردوه كان مردودًا.

واصطفاهم الله ليكون منهم النبي ﷺ بسبب ما اختصوا به مـن العقول والألسنة والأخلاق والأعمال، ولما بُعث ﷺ نقلهـم عـن العادات الجاهلية، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزله الله إليهم.

ولقد بُعث النبي ﷺ بلسان قومه؛ ليفقهوا عنه وتقوم حجة الله عليهم، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [ابراهيم: ٤]. ولسان قريش العربية التي نزل بها القرآن لفظًا ومعنى، ولم يكن هذا باختيار النبي ﷺ إنما هو بأمر الله وحكمته، فهناك علاقة بين لغة القرآن العربية وبين نبوءة النبي ﷺ فهي أحد أدلة صدق نبوءته ﷺ.

وهناك من يحاول الفصل بين اللغة العربية وبين النبوءة، حيث نظروا إليها أنها جزء جوهري في بنية النص القرآني، تكونت من أيدولوجيا العصبية العربية، وليست هي حقيقة من حقائق الوحي الإلهي الذي جاء به محمد ﷺ.

ثانيًا:

تعريف النظم والأسلوب

النظم أصل يدل على تأليف الشيء مع الترتيب والتنسيق.
و**الأسلوب** هو الوجه والطريق والمذهب الذي يصاغ به الكلام.
والمراد هنا نظم وأسلوب القرآن بلفظه ومعناه؛ إذ إن لفظه وأسلوبه الإلهي المتفرد دل على صدق نبوءة النبي ﷺ فهو ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة، ولا نظير له في كلام الخلق.

ثالثًا:

هل كان محمد ﷺ شاعرًا؟

لم ينظم النبي ﷺ قصائد الشعر، إنما كان يقول البيت والبيتين جريًا على لسانه من غير قصد، كقوله: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)، وقد يحكي قول غيره متمثلاً به، كقوله: (ألا كُلُّ شيء ما خلا الله باطل)، وهذا لا يقال عنه شاعر، بخلاف من يقول كلامًا موزونًا مقفى بقصد أولي.

وثمة سؤال يطرح نفسه ألا وهو:
هل هناك مفارقة في النظم
والأسلوب بين القرآن وغيره؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: مفارقة بين نظم القرآن وأسلوبه وبين نظم وأسلوب كلام الإنس والجن.

أيقن كفار قريش بأن نظم وأسلوب القرآن مغاير لكلامهم، ولكلام الشياطين التي كانت تلهم الشاعر، وتعِين الكاهن والساحر، فالقرآن عندهم ليس من صنيع البشر ولا الجن، وقد ظهر ذلك في أقوالهم، مثل قول الوليد بن المغيرة: "والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر"، وغيره من اعترافات صناديد قريش التي تبيِّن مغايرة القرآن لكلام الشعراء.

كما أنهم لا يعدون النبي ﷺ من جنس الشعراء، وهذا ما نفاه القرآن، فقد قال تعالى: {وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجنُونٍ * بَل جآءَ بالحَقِّ وَصَدَّق المُرسَلِينَ} [الصافات:٣٦-٣٧].

كما نفى القرآن عن النبي ﷺ تعلّم الشعر، قال تعالى: {وَمَا عَلّمنَٰهُ الشِّعرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِن هُوَ إِلا ذِكر وَقرءَان مُّبين} [يس:٦٩]؛ لأن الشعر من الشعور، وفيه تخييل وتزويق للقول، أما القرآن فهو ذكر للحقائق والبراهين.

كما أن الشعر يكون من الشيطان تارة فيكون كذبًا وإثمًا، ويكون من النفس أخرى فيكون غيًّا واتباعًا للشهوات، ومنه وما يكون حقًا، وهذا يتبين في قول الله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبعُهُمُ الغَاوُنَ * ألَم تَرَ أنهُم فِي كُلِّ وَاد يَهِيمُونَ * وَأنهُم يَقولُونَ مَا لا يَفعَلُونَ * إلا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّلِحَٰت وَذكَرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعدِ مَا ظلِمُوا وَسَيَعلَم الذِينَ ظلَمُوا أيَّ مُنقلَب يَنقلِبُونَ} [الشعراء:٢٢٤-٢٢٧]، ففرق سبحانه بين محمد ﷺ وبين الشعراء، فالشعراء يتبعهم الغاوون عن طريق الهدى، وهم يهيمون في كل واد من أودية الشعر، من مدح، وقدح، وصدق وكذب، وغيرها من الأحوال المتنقلة. ومن صفات الشعراء أن أقوالهم تخالف أفعالهم، كما قيل في الشعر: إن أعذبه أكذبه، فتأمل في صفات الشعراء وصفات الرسول ﷺ وحال أتباع كل منهما، وكلامه، والغرض منه؛ تجد المخالفة بين الحالين.

وكيف يكون القرآن شعرًا، والشعر كلام موزون مقفى، له معـانٍ مناسـبة لأغراضـه التـي أكثرهـا هـزل وفكاهـة، فـأين الـوزن فـي القرآن؟ وأين التقفية؟ وأين المعاني التي ينتجها الشعراء؟

وعنـد تأمـل قصـائد العـرب؛ تجـدها تأخـذ نمطـًا فـي نظمهـا وأسلوبها، فالشاعر يقف على الأطلال، ويصف دابته، ثـم يتغـزل، ثم يشرع فـي المـدح أو الهجـاء. وهـذا مـا لا نجـده فـي القـرآن الكريم، فهو يتحدث إلى الرسول ﷺ أو عنه، ويشتمل على الدعوة لعبادة الله، والأحكام والجزاء و... إلخ فهو دعوة ملتزمة بمـنهج لا تحيد عنه، خالفت الشعر في الغاية فبعدت عن مناهجه.

وكيف يكون محمد ﷺ شاعرًا وهو يذم بعض الشعراء في الكتاب الذي جاء به؟ وينفي عنه أن يكون شاعرًا، في وقت كانت قـريش تتفاخر بالشعر والشعراء.

وحينما تعرضت قريش بالأذى للنبي ﷺ قال لحسـان -رضـي اللـه عنـه-: (إن روح القـدس لا يـزال يؤيـدك مـا نافحـت عـن اللـه ورسوله)، ولو كان النبي ﷺ شاعرًا لباشر ذلك بنفسه.

ولو قلنا تنزلاً بأن القـرآن شـعر، ومحمـدًا ﷺ شـاعر؛ لسـهل عـلى الكفار أن يحاكوه، وهذا لم يقع مطلقـًا.

هذا شيء من المغايرات والمفارقات بين القرآن وشعر الجاهلية، وبهذا تبطل دعوى القائلين بأن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ منحول من الشعر الجاهلي.

لقد كانت قريش تعتقد بأن للرجل تابعًا من الجـن يسـمونه رئيًـا، فظنوا أن بعض الجن يتراءى للنبي ﷺ فيوهمه بأنـه نبـي مرسـل، وقد رد الله عليهم بقوله تعالى: {وَمَا تَنَزَّلَـت بِـهِ الشَّـيَٰطينُ * وَمَـا يَنبَغِـي لَهُـم وَمَـا يَسـتَطِيعُونَ * إِنَّهُـم عَـنِ السَّـمعِ لَمَعزُولُـونَ} [الشعراء:٢١٠-٢١٢].

والجن لما سمعت القرآن اعترفت بأنه حق، كما ذكر الله عـنهم: {وَإِذ صَرَفنَا إِلَيكَ نَفَرًا مِّنَ الجنِّ يَستَمِعُونَ القُرءَانَ فَلَمَّا حَضَـرُوهُ قالُوا أنصِتُوا فلَمَّا قضِيَ وَلوا إِلَىٰ قومِهِم مُّنذِرِين * قالُواْ يٰقومَنَا إِنَّا سَمِعنَا كِتَٰبًا أنزِلَ مِن بَعدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًـا لمَا بَينَ يَدَيهِ يَهدِي إِلَـى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيق مُّستَقِيم * يَٰقومَنَا أجيبُواْ دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بهِ يَغفِر لَكُم مِّن ذنوبكم وَيجِركُم مِّـن عَـذَابٍ أَلِـيم} [الأحقـاف:٢٩-٣١].

وعلى وضح المفارقة بين نظم وأسلوب القرآن وغيره، إلا أن هناك من يحاول التشكيك في هذه المفارقة؛ لنزع قداسة وإلهية مصدر القرآن قائلاً: "مع أن الآثار الفنية شعرًا كانت أو نثرًا أو رسومًا أو منحوتًا أو روائع موسيقية أو غيرها كل أثر منها معجز بطريقته الفريدة، ولا سبيل إلى الإتيان بمثلها رغم بشريتها" وهذا القول لم يقل به من يعرف اللغة العربية، فلكل واحد من البشر أسلوب خاص إلا أنه محدود بقدرة البشر، وبالإمكان محاكاته.

الوجه الثاني:
مفارقة بين القرآن والحديث .

وتظهر في وجوه عدة، منها:

مفارقة من جهة مصدر النظم والأسلوب:

القرآن

هو كلام الله المنزل غير المخلوق، على محمد ﷺ بواسطة جبريل، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

الحديث النبوي

هو كل ما أثر عن النبي ﷺ بعد البعثة من قول وعمل وتقرير.

الحديث القدسي

هو الحديث الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربه لفظًا ومعنى.

وهنا يتبين الفرق بين القرآن والحديث من وجوه عدة، منها:

- القرآن لفظه ومعناه من الله، وهو الوحي الجلي بواسطة جبريل، بينما الحديث النبوي لفظه من النبي ﷺ، ومعناه وحي من الله، والحديث القدسي لفظه ومعناه من الله، بوحي جلي أو خفي، يرويه النبي ﷺ عن ربه.
- فالوحي وحيان؛ وحي أُمرنا بكتابته، و تعبدنا بتلاوته، وهو القرآن الكريم، ووحي لم نؤمر بكتابته، ولم نتعبد بتلاوته، وهو السنة.

- القرآن لا يضاف إلا لله تعالى، والحديث القدسي يرويه النبي ﷺ عن ربه، فيُقال: قال الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه، والحديث النبوي يرويه الصحابي عن النبي ﷺ فيقول: قال الرسول ﷺ.
- القرآن منزل إلى جبريل ثم محمد ﷺ، بينما الحديث النبوي هو رواية الصحابي عن الرسول ﷺ، والحديث القدسي يرويه النبي ﷺ عن ربه، ومن ثم يرويه الصحابة، ولا بد من ذكر السند حيال نقله، بخلاف القرآن.
- القرآن متعبد بتلاوته وقراءته، بينما الحديث النبوي والقدسي لا يتعبد بتلاوته في الصلاة.
- القرآن منقول إلينا بالتواتر، بخلاف الحديث النبوي والقدسي، منه المتواتر والآحاد، والصحيح والضعيف.
- تسمى الجملة من القرآن آية وسورة، وهذا لا يوجد في الحديث.

مفارقة من جهة الدلالة:

- القرآن دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ، بخلاف الحديث النبوي لم يُستدل به على صدق النبوءة، وإن تضمن بعض دلائلها كالإخبار بالمغيبات.

- القرآن بلفظه وبيانه بهر قريشًا، وأيقنوا أنه ليس من قبيل كلام البشر، بخلاف الحديث.

- ادعى كفار قريش أن لهم القدرة على أن يقولوا مثل القرآن، وطلبوا من النبي ﷺ أن يبدله، فطلب الله منهم أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة مثله، فلم يأتوا ليظهر عجزهم، أما الحديث فلم يؤثر اعتراض عليه، ولم تكن هناك مطالبة بالإتيان بمثله.

مفارقة من جهة النظم والأسلوب:

- لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية؛ لوجب أن ينطبع على سائر كلامه، ونحن نرى أن عبارات الرسول ﷺ يتميز عنها النص القرآني تميزًا صارخًا.
- كما نجد أن في الأحاديث النبوية ألفاظًا مرتبطة بالحياة اليومية؛ كالمد والصاع، ولا وجود لها في القرآن.

- ونلاحظ اختلافًا بين أسلوب القصص الواردة في القرآن والواردة في الحديث، ونلاحظ أيضًا اختلاف أسلوب القسم، ففي القرآن يقسم الله بما شاء من مخلوقاته، أما في الحديث فالقسم لا يكون إلا بالله وحده.

- كما أن لنظم القرآن تأثير في النفوس، بخلاف الحديث، والقرآن لفظه ومعناه من عند الله تعالى، والسنة لفظها من النبي ﷺ ومعناها من الله تعالى.

- كما أن القرآن يخلو من تأريخ الأحداث بخلاف الحديث، فلو كان محمد ﷺ مؤلف القرآن؛ لغلبه لسانه على الألفاظ والأساليب التي يستخدمها في الحديث، فنجدها في القرآن، وشيء من ذلك لم يحدث.

الوجه الثالث:
مفارقة بين القرآن والتوراة والإنجيل.

نزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد ﷺ وكلها كلام الله تعالى، إلا أن نظـم القـرآن مفارق للتوراة والإنجيل، **ويتبين ذلك من جوه، منها:**

من جهة اللغة:

نزلت التـوراة بالعبريـة، والإنجيـل بالآرميـة، وكلامهما مُترجم لا يُعرف أصله الذي تُرجم عنه، أمـا القـرآن فنـزل باللغـة العربيـة، ولا يزال نظمه وأسلوبه باللغة التي نزل بها، لم يتغير ولم يتبدل.

من جهة الحفظ:

تكفل الله تعالى بحفظ القرآن، بينمـا وُكِـل حفظ التوراة إلى الأحبار.

من جهة النقل:

نقل القرآن بالتواتر، بخلاف الأناجيل التي كُتبت بأيدي النصارى بعد أن رُفع المسيح، وهذا يعني انقطاع السند بين المسيح وبين من كتبها، وما كُتب كان من كلام المسيح، وليس من كلام الله تعالى.

من جهة النظم والأسلوب:

كل ما يجده القارئ للتوراة والإنجيل هو حكايات للأنبياء، وتفاصيل دقيقة عن النبي، فكأنه كتاب قصص، وهذا ما لا يوجد في القرآن الكريم، الذي يتحدث إلى الرسول ﷺ ليبلغ عن ربه، فنادرًا ما يتحدث القرآن عن تأريخ محمد ﷺ.

كما أن نظم وأسلوب التوراة والإنجيل لا تأثير له على النفس البشـرية، بخلاف نظم القرآن فله تـأثير عجيـب، فهمـت النفـوس معانيـه أم لـم تفهمه.

وبهذا يظهر أن نظم القرآن وأسلوبه أحـد الأدلـة عـلى صـدق نبـوءة محمد ﷺ.

المبحث الثاني

موقف كفار قريش من نظم وأسلوب القرآن

اعتراف صناديد العرب بمباينة نظـم وأسـلوب القـرآن عن سائر الكلام لم يقدهم إلى الاعتراف بصدق نبوءة محمـد ﷺ فحـاولوا التلبـيس والعنـاد بطـرق متنوعـة، منها: تنفير الناس بالكذب على القـرآن، وعـلى النبـي ﷺ لأن القرآن سفَّه آلهتهم، ولأن النبي ﷺ خُص بالذكر من بينهم، **ومن صور كذبهم:**

زعموا بأن القرآن سحر؛ لقربه من تأثير السحر، ومن هذا قول الوليد بن مغيرة: " فما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر، فتقولوا هو سحر يُفرّق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وبين أخيه، وبين المرء وبين زوجته، وبين المرء وعشيرته".

ادّعوا أن القرآن قول شاعر، مع أن قريشًا لم تعد محمد ﷺ من جملة شعرائها.

ادّعوا أن القرآن تعليم رجل أعجمي للنبي ﷺ، فرد الله عليهم: {وَلَقد نَعلَمُ أنهُم يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَر لسَانُ الذِي يُلحِدُونَ إِلَيهِ أعجَمِيّ وَهذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مُّبِينٌ} [سورة النحل:١٠٣].

ادّعوا أن القرآن من كلام محمد ﷺ افتراه وأعانه عليه آخرون، قال تعالى: {وَقالَ الذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلا إِفكٌ افتَرَاهُ وَأعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فقدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} [الفرقان:٤]، فرد الله عليهم: {قل أنزَلَه الذي يَعلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالأرضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا}[سورة الفرقان:٦].

عمدوا إلى التواصي على عدم سماع القرآن، وممانعة سماعه، لأنهم يدركون تأثيره، قال تعالى: {وَقالَ الذِينَ كَفرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذا الْقرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلكُمْ تَغْلِبُونَ} [فصلت: ٢٦].

طلبوا من محمد ﷺ أن يأتيهم بغير هذا القرآن؛ لاختبار حاله، وإثبات أنه من عنده، قال تعالى: {وإذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ قالَ الذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائتِ بِقرْآنٍ غَيْرِ هَذا أوْ بَدِّلْهُ قلْ مَا يَكُونُ لِي أنْ أبدِّلَهُ مِن تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أتبعُ إِلا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* قل لوْ شاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتهُ عَلَيْكُمْ وَلا أدْرَاكُم بِهِ فقَدْ لَبثت فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قبْلِهِ أفلا تعْقِلُونَ} [سورة يونس:١٥-١٦].

زعموا بأن لهم القدرة على قـول مثـل القـرآن، وهـم يوقنـون أن دعواهم مجردة من الدليل، ولتأكيد بطلانها، أظهـر اللـه حقيقـة عجزهم **بطريقتين:**

الأول: خبـر مجمـل، بحقيقـة عـدم قـدرتهم عـلى الإتيان بمثل هذا القرآن، وهو أمر غيبي، تحقق في عدم مقدرتهم، وإذا لم يقع مـنهم؛ فعـدم وقوعـه من غيرهم أولى، قـال تعـالى: {قـلْ لَـئِنِ اجْتَمَعَـتِ الإِنْسُ وَالْجـنُّ عَلَـى أنْ يَـأتُوا بِمِثـلِ هَـذا الْقُـرْآنِ لا يَأتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيـرًا}[سـورة الإسراء:٨٨]. وقال تعالى: {وَمَا كَانَ هَـذا الْقـرْءَانُ أن يُفتَرَى مِن دُونِ اللَّـهِ وَلَكِـن تَصْـدِيقَ الـذِى بَـيْنَ يَدَيْهِ وَتَفصِيلَ الْكِتَب لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَلَمِـينَ} [سورة يونس:٣٧]، أي أن هذا القـرآن لا يكـون إلا من عند الله، فما من كلام يتكلم به الناس إلا وقـد قيل ما يشبهه، أما القرآن فلا نظير له.

الطريق الثاني: خبر مفصل بأساليب متعددة، فالله طلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن: {فليَأتُواْ بِحَدِيث مِّثلِهِ إِن كَانواْ صَٰدِقِينَ} [سورة الطور:٣٤]، أو بعشر سور: {أَمْ يَقولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فأتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [سورة هود:١٣]، أو بسورة: {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فأتواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} [سورة البقرة:٢٣]، وهذا التحدي ليقيم الدليل على عجزهم، ولإيضاح بطلان دعواهم، وصدق نبوءة محمد ﷺ.

وثمة أمور تحتاج إلى تجلية وبيان، منـها:

دلالة القرآن على صدق نبوءة النبي ﷺ من جهـة دلالـة الـنظم والأسلوب، وخروج ذلك من مقدور الخلق، ثابت للقرآن منذ أن نزل، باعتراف صناديد قريش، وهو متحقق سواء وقع التحـدي أم لم يقع.

الطلب بالإتيان بمثل القرآن لـم يكـن ابتـداءً، وإنمـا لمـا قـالوا: افتراه، تحداهم ليثبت عجزهم.

الطلب بالإتيان بمثل هذا القرآن موجه للعرب الفصحاء، فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فعجز غيرهم أولى. وزعم بعض المتنبئين قدرتهم على معارضة القرآن، ولم يستطيعوا، وهذا ناجم عن فرط جهلهم؛ إذ آلت محاولاتهم بالفشل لعوار نظمهم، كما نُقل من ترهلات مسلمة في قوله: (الفيل وما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب طويل، وخرطوم وذيل). ومعارضتهم للقرآن كانت مبنيَّة على دعوى تنبئهم، وهو مرتبط بأسباب سياسية ومادية لا دينية، كما لم يعرف عنهم صدق، ولم يبلغوا الكمال في أخلاقهم.

الهدف من الطلب هو إظهار عجز كفار قريش، وبيان كذبهم، للدلالة على أنه من عند الله، وذلك دليل على صدق نبوءة النبي ﷺ وهذه النتيجة ملزمة للعرب وغيرهم.

قليل القرآن وكثيره في دلالة النظم والأسلوب على صدق نبوءة النبي ﷺ سواء.

المثلية التي طالب الله فيها كفار قريش تقتصر على مثلية نظم وأسلوب القرآن، وإن كان المعنى مختلفًا؛ لإظهار عجزهم لما ادعوا أن لهم القدرة على الإتيان بمثله، ولبيان أنه من عند الله لما ادعوا أنه افتراء من عند محمد ﷺ.

كل من يدعي أن له القدرة على الإتيان بمثل هذا القرآن في أي زمان، تقام عليه الحجة ذاتها، بطلب الإتيان بمثله، والنتيجة عجزه عن ذلك.

في تكرار الطلب بالإتيان بالمثل، مع طول المدة التي نزل فيها القرآن، ووجود الداعي المؤكد لإبطال دعوة نبوءة محمد ﷺ دليل على عجز الثقلين عنه.

هذه الدلالة هي أحد الأدلة التي دلَّ عليها القرآن، وليست الدلالة الوحيد على صدق نبوءة النبي ﷺ وهي باقية ولم تنقض.

أي محاولة تهدف إلى التشكيك في فصاحة العرب من قريش يردها التأريخ، وستنعكس تلك المحاولات التي تشكك في وجود الشعر الجاهلي إلى التشكيك في دلالة نظم وأسلوب القرآن، فنقض هذه المقدمة -ثبوت الشعر الجاهلي- ينقض دلالة فصاحة العرب، وعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن. وهناك من يحاول أن يفسر عجز العرب في عدم معارضتهم للقرآن الكريم بأن الله صرف هممهم عن ذلك؛ لأنه ينفي دلالة النظم والأسلوب، ولا يرى فيها دلالة على صدق النبوءة، مع الاعتراف بالمصدر الإلهي للقرآن. وهناك من ينزع القداسة الإلهية عن آيات القرآن لأنسنته، فيقول بأن الله صرف العرب عن معارضته، والقول بسلب القدرة عنهم يبطل فائدة آيات التحدي، ويجعل دلالة القرآن على صدق النبوءة دلالة خارجية، فتتنزل دلالة القرآن الذاتية. ومعلوم أن فصاحة العرب قائمة قبل طلب المعارضة وبعدها، وهذا يبرهن على عجزهم.

هناك عوامل نفسية واجتماعية دعت كفار قريش لتكذيب النبي ﷺ ويمكن رجعها إلى عامل المنافسة على المناصب الاجتماعية التي كان العرب يحرصون عليها، فهذا أبو جهل يقول: "إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن بني قصي قالوا: فينا الحِجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، وأطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي، والله لا أفعل". وقد ضموا إلى شركهم معاندة الحق، ومعاداة الرسول ﷺ والاستخفاف بكتاب الله، والاحتكام على حكمة الله في تخير محمد ﷺ من أهل زمانه، وقد قال الله تعالى عنهم: {وَقالُواْ لَولا نُزِّلَ هَذا القُرءَانُ عَلَى رَجُل مِّنَ القَريَتَينِ عَظِيمٍ} [سورة الزخرف:٣١]. كما أن الإرث للتقاليد، وتبعية من سبق من آبائهم أثَّر في رفضهم دعوة النبي ﷺ قال تعالى: {وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتبعُواْ مَا أنزَلَ اللَّه قالُوا بَل نَتَّبعُ مَا ألفَينَا عَلَيهِ ءَابَاءَنَا أوَلَو كَانَ ءَاباؤُهُم لا يَعقِلُونَ شَيئًا وَلا يَهتَدُونَ} [سورة البقرة:١٧٠].

بعدما عجز كفار قريش عن الإتيان بمثل القرآن، عـدلوا إلى الأمور التـي تتضـمن الخطـر عـلى الـنفس والمـال، فلجؤوا إلى الحـرب، واختيـارهم لهـذا الطريـق الشـاق دليل على أن مضمون القرآن حق، وأن النبوءة صدق.

الإقرار بمقدمات القضايا وحده لا يكفي، بـل لا بـد مـن الالتزام بنتائجها، فثمة تشـابه فـي موقـف كفـار قـريش من قضيتين أساسيتين، همـا: التوحيـد والنبـوءة، ففـي قضـية التوحيـد أقـروا بربوبيـة اللـه كـالخلق والـرزق، وعبدوا الأصنام لتقربهم إلى اللـه، مـع إنكـارهم البعـث والنشور. وهذا الموقف يتكرر في قضـية النبـوءة، فهـم أقروا بأن نظم وبيان القـرآن خـارج عـن مقـدور الإنـس والجن، وأنه ليس من عند محمد ﷺ ومـع ذلـك أنكـروا أن يكون القرآن دلـيلاً عـلى صـدق نبوءتـه ﷺ فـإقرارهم بمقدمات القضايا لم يقدهم إلى الالتزام بنتائجها.

سنة الله في خلقه أنه ما بعث نبيًّا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص النبي محمد ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس. فبُعث من العرب بلسانهم، والناس تبع لهم، ثم بعث ﷺ الرسل إلى الأطراف يدعون إلى الله، و يترجمون لهم بألسنتهم، وهذا يغني عن نزول القرآن إلى جميع الألسن. ونزول بلسان واحد أبعد عن التحريف، وأسلم من الخلاف. ونزل بلسان قوم الرسول ﷺ لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه. فإن قال الأعجمي من أين تتبين لي دلالة النبوءة، وفهم النظم وأنا لا أفقه اللغة؟ قيل له: الحجة عليك في إذعان أهل الفصاحة، و بإذعانهم قامت الحجة على البشر.

وبهذا الإيضاح لوجه دلالة النظم والأسلوب يتبين لكل من أراد الحق، أن القرآن خارج عن محمد ﷺ فهو من عند الله تعالى، أيـّد بـه نبيـه ﷺ ليكون برهانًا على صدق نبوءتـه، ودلالـة الـنظم والأسـلوب إحـداها، وليست مُنحصرة فيها.

الفصل السابع

دلالة عتاب النبي ﷺ على نبوءته.

المبحث الأول

تعريف العتاب

معنى العتاب

يأتي العتاب بمعنى اللوم، والعِتاب حسن المراجعة، وإنما يعاتب من تُرجى عنده العُتبَى: أي الرجوع عن الذنب والإساءة. ولهذا لا يُستعتب الكفار والظالمون يوم القيامة. وعتاب الله لنبيه ﷺ يكون على أمر قد صدر وبدر منه للرجوع عنه، فهل يتعارض هذا مع عصمة الله للنبي ﷺ؟!

هذه المسألة تحتاج لتجلية؛ لأن الخلط حدث فيها من جهتين:

الأولى: من جهة مفهوم عصمة الأنبياء.

الثانية: من جهة القول بعصمة الأنبياء من الصغائر بعد النبوءة.

وهذا خلل منهجي في مسائل النبـوءة يتبـين من وجوه عدة، منها:

- أن الأنبياء معصومون فيما يخبـرون به عن الله تعالى، وفي تبليـغ رسـالاته وهذا معلوم بـدليل العقـل والشـرع والإجماع.
- أن الأنبيـاء مـن أخيـار النـاس خُلقـًا ونسبًا، وتميزهم عن بقية الناس كـان باصطفاء الله تعالى لهم حيث نبأهم، فالحديث عن مسـألة النبـوءة يكـون بعد الاصطفاء لا قبله.

- عصمة الأنبياء تكون من الله تعالى لأنبيائه بعد النبوءة.
- الأنبياء معصومون فيما يبلّغون عن الله تعالى، وعن الكبائر، وتقع منهم الصغائر لكن لا يُقرون عليها، فالله عاصمهم من الإقرار عليها، وسرعان ما يتوبون إلى الله تعالى، فعتاب الله لنبيه ﷺ لا يتنافى مع وقوع الصغيرة منه.
- العصمة بعد النبوءة لا يدعيها الأنبياء مطلقًا؛ ذلك أن العصمة من الله تعالى لأنبيائه، لا يدعيها نبي الله الصادق.
- النزاع في عصمة الأنبياء من الصغائر بعد النبوءة.

- المتأمل في آيات القرآن الكريم يجد العديد من الآيات التي تذكر توبة واستغفار الأنبياء مما صدر منهم من الصغائر بعد النبوءة، ومنها قول نوح: {قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِك أَنْ أَسْأَلكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخاسِرِينَ} [هود:٤٧]

- وقوع الصغائر من الأنبياء وتوبتهم دلالة على بشريتهم، وفيه دلالة على الاقتداء بهم في استغفارهم، وبيان حالهم بعد التوبة والاستغفار.

المبحث الثاني

آيات عتاب النبي ﷺ

هناك آيات جاءت على غير ما يحبه النبي ويهواه، فيعاتبه الله حينًا، ويأذن له في الشيء والنبي ﷺ لا يميل إليه، وفي هذا دلالة على أن القرآن الكريم لم يكن من إنشائه، **فمن هذه الآيات ما يلي:**

زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها، والذي كان بسبب تحريم التبني، حيث كان زيدٌ ابنًا للنبي ﷺ بالتبني، وهو من زوّج زيدًا زينب، وقالت عائشة - رضي الله عنها-: لَوْ كانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كاتِمًا شيئًا ممَّا أُنْزِلَ عليه لَكَتَمَ هذه الآية: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عليه وأنعَمْتَ عليه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللَّهَ وتُخْفِي في نَفْسِكَ ما اللَّهُ مُبْدِيهِ وتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أحَقُّ أنْ تَخْشاهُ} [الأحزاب: ٣٧].

حين أراد ﷺ الخروج لتبوك لغزو الروم أذن لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين، فأنزل الله عليه: {عَفا اللَّهُ عَنك لِمَ أذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذينَ صَدَقوا وَتعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة:٤٣]، فهذا عتاب من الله تعالى لنبيه ﷺ حين أذن للمنافقين الذين استأذنوه.

أن النبي ﷺ صلّى علّى عبدالله ابن أُبيّ ثم نهاه اللـه عـن الصـلاة على المنافقين، قال تعالى: {وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبـدًا وَلا تَقـمْ عَلَـى قَبْـرِهِ إِنَّهُـم كَفـرُوا بِاللَّـهِ وَرَسُـولِهِ وَمَـاتوا وَهُـمْ فاسِقـونَ} [التوبة:٨٤].

قول النبي ﷺ لعمه أبي طالب: (لأستغفرن لك ما لم أُنـه عنـك) فنزلت: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالذِينَ آمَنُوا أن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أولِي قرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُـمْ أنـَّهُمْ أصْـحَاب الْجَحِـيمِ} [التوبة: ١١٣]

معاتبة الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ يوم بدر حين أسرَ المشركين وأبقاهم لأجل الفداء، فأنزل الله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أن يَكُونَ لَهُ أسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأرْض} [الأنفال: ٦٧] يقول تعالى: {تريدون} بأخذكم الفداء وإبقائهم {عرض الدنيا} أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم {والله يريد الآخرة} بإعزاز دينه ونصر أوليائه {والله عزيز حكيم} أي كامل العزة.

في قوله تعالى: {يَا أيُّهَا النَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أحَلَّ اللَّهُ لَك تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أزْوَاجِكَ} [التحريم:١]، استفهام إنكار، فالله تعالى ينهى نبيه ﷺ عن تحريم ما أحل الله له.

قصته ﷺ مع ابن أم مكتوم حينما عبس عنه والتفت لمخاطبة صناديد قريش طمعًا في رغبتهم وهدايتهم، فأنزل تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى * أن جَاءهُ الأعمَى * وَمَا يُدرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكى * أو يَذَّكَّرُ فَتَنفعَهُ الذِّكرَى * أمَّا مَنِ استغنَى * فأنتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيكَ ألا يَزَّكى * وَأمَّا مَن جَاءَكَ يَسعَى * وَهُوَ يَخشَى* فأنت عَنهُ تَلَهَّى} [عبس: ١-١٠]، **فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه:** " لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة".

إن آيات عتاب النبي ﷺ تدل على أن القرآن منزل من عند الله لا من عند محمد ﷺ، ولو كان فرضًا من عنده لما أظهر العتاب والمخالفة، ولكان موافقًا له في كل حالاته.

وفيه دلالة على صدق النبي ﷺ ونفي الكذب عنه.

وفيه دلالة أيضًا على عدم علمه ﷺ بالغيب إلا من خلال الوحي.

ولتكون آيات عتابه ﷺ أحد أدلة صدق نبوءته، فالله سبحانه يستدرك على نبيه محمد ﷺ وينسخ ما يُلقي الشيطان ليحكم الله آياته، وليُعلم بأن القرآن كلام الله تعالى.

الفصل الثامن

دلالة تأخر نزول الوحي مع مسيس الحاجة إليه على نبوءة النبي ﷺ .

المبحث الأول

تأخر الوحي في حادثة الإفك.

حينما خاض المنافقون في عِرض زوج النبي ﷺ عائشة رضي الله عنها، ولـم ينزل الوحي في تلك الفترة فأبطأ عن النبي ﷺ.

فهذه الحادثة تدل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولو ادّعى معرفة الغيب لبرّأ زوجَه.

بل إن النبي ﷺ كان يطلب مشـورة قومـه فـيمن قـذف زوجَـه، حيـث يقـول النبي ﷺ: (أما بَعْدُ أشِيرُوا عَلَيَّ في أُناسٍ أبَنُـوا أهلـي واللـهِ مـا عَلِمْـتُ عـلى أهلي من سوءٍ قطُّ).

ولما نزل عليه الوحي ببراءتها أقام حد القذف على مَن وقع منه.
ولو فرضنا أن القرآن من عند محمد ﷺ فهل يستدعي الأمر أن يستشير صحابته فيمن قذف عِرضه، ولو كان أمر القرآن إلى النبي ﷺ وهو من إنشائه لذبّ عن عِرْض زوجه مباشرة دون أن ينتظر برهة ليحمي عِرضه، ولنسبه إلى الوحي، حتى تنقطع ألسنة المتهوكين، لكنه ما جرؤ على مثل هذا أبدًا، لتعلم بأن القرآن لم يكن من صنيع محمد ﷺ أبدًا.

المبحث الثاني

تأخر الوحي في تحويل القبلة.

بعد فرح اليهود باستقبال الرسول ﷺ لبيت المقدس، كان ﷺ يحب قبلة إبراهيم عليه السلام ويدعو الله وينظر إلى السماء، حتى أنزل الله {قَدْ نَرَى تقلُّبَ وَجْهِكَ} [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة. ولو كان القرآن من عند محمد ﷺ لما تأخر كل هذه المدة، لشيء يحبه ويتشوف إليه، ولقال بتحويل القبلة مباشرة، ولم يُبين تشوقه ويصف حاله، لكنه الوحي الإلهي من عند الله تعالى.

المبحث الثالث

تأخر الوحي في الإجابة على سؤال كفار مكة.

انقطع الوحي عن النبي ﷺ لفترة؛ بعدما سأله كفار مكة عـن أمـور أخبـرهم بها أحبار يهود، ووعدهم النبي ﷺ بالإجابة في يوم غد ولم يقل إن شاء الله، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلـك وحيًـا. حتى أحزن رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليـه مـا يـتكلم بـه أهـل مكة، ثم نزلت سورة الكهف.

في هذه الحادثة دلالة على صدق نبوءة النبي ﷺ من جهة أنه لو كان من عنده لم يحتج إلى هذا التأخر في البيان، وإجابته بعدما نزل عليه الوحي للأسئلة الموجهة إليه دليل آخر على صدق نبوءته لأنه أخبر بأمور غيبية لا يعلمها إلا نبي، وتوجيه للنبي ﷺ من جهة أخرى ليستثني النبي ﷺ فيما بعد عمّا في غد.

وفي الدلالتين دلالة أخرى وهي أن القرآن لم يكن من لدن محمد ﷺ البتة، وإنما إلهي المصدر.

المبحث الرابع

تأخر الوحي في بيان الآيات المجملة.

ومن ذلك لما نزل قول الله تعالى:{إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٤] شقّ ذلك على صحابة رسول الله ﷺ فوجههم النبي ﷺ لقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فذلّت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ..} [البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: {لا يُكَلّف اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَانَا} [البقرة: ٢٨٦].

فلـو كـان القـرآن مـن عنـد محمـد ﷺ لأعلمهـم بـالأمر مـن البدايـة ولأزال الإشكال من فوره عنهم، ولكنه كان مثلهم ينتظر تأويلها وبيانهـا. فهـو مُبلّـغ عن ربه، وليتبين لنا دلالة صدق نبوته ﷺ من هذا التأخر في بيان ما أجمل.

المبحث الخامس

تأخر الوحي في صلح الحديبية.

ذاك أن النبـي ﷺ وصـحبه يـأتون البيـت محـرمين ويُـردون مـن قـريش، ويمكثون قرابة السنتين لصلح الحديبية، ويوافقون على الشروط التي تُملى عليهم، ولا يُملي النبي ﷺ شرطًا واحدًا، ويتحمل هو وصحبه المتاعـب، فلـو كان يعلم الغيب لما أقدم على الذهاب إلى مكة، ولو كان القرآن من عنده لما احتاج للصلح وإملاء الشروط عليه.

تأخر نزول القرآن خلال فترة الصلح يدل على أن القرآن لم يكن من إنشاء محمد ﷺ وإنما هو من عند الله تعالى، فثمة حِكَم إلهية كانت من صلح الحديبية، لم يعلمها النبي ﷺ ولا صحبه الكرام رضي الله عنهم، فكان في الصورة الظاهرة ضيمًا للمسلمين وفي الصورة الباطنة عِزًا لهم، وذلّ المشركون من حيث أرادوا العزة وأُقهروا من حيث أرادوا الغلبة.

المبحث السادس

تأخر الوحي في قصة المجادلة.

فمحمد ﷺ يقول للمرأة التي ظاهَرَها زوجها بأنها حَرُمَت عليه، فتحاوره مرة بعد أخرى، وفي كل مرة يقول: (حَرُمتِ عليه)، ثم ينزل الوحي بآيات يتبين فيها حكم الظهار، قال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ التي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة:١] فلو كان من عند محمد ﷺ لبين حُكم الظِهار من أول مرة.

فيتبين أن القرآن لو كان من قول النبي ﷺ لوضّح وبيّن قوله في تلك المواطن الملحّة، إذ الأمر لو كان إليه لوجد له مقالاً ومجالاً، وتمضي الأيام ولا يجد في شأنها قرآنًا يتلوه على الناس، وحينًا يأتي القرآن مُخالفًا لحُكمه الذي قضى به بدءًا، وفي هذا دلالة على أن القرآن وحيٌ من الله تعالى ينزل في الوقت الذي يريده سبحانه.

الخاتمة

خَلُص البحث إلى نتائج منها:

١

اكتفاء الشريعة الإسلامية وكمالها في المسائل والدلائل، وهو من سمات هذه الأمة.

٢

الإيمان بالنبوءة يُبنى على دلائل يقينية تُوجب التسليم بكل ما جاء به الرسول، فيؤمن به إيمانًا ليس مشروطًا.

٣

المقصود من بيان أدلة صدق نبوءة النبي ﷺ التصديق بمضمون أخباره.

٤

دلائـل النبـوة متنوعـة ومتعـددة، وعليـه لا يمكن حصر دلالتها في دليل دون غيره.

٥

ما حدث الخلـل فـي مـنهج الاسـتدلال عـلى قضية النبوءة إلا من جهـة الاسـتدلال عليهـا بدليل واحد لا يرى المستدل به غيره.

٦

الاكتفاء المنهجي الشرعي بما ورد في الكتاب والسـنة الصـحيحة لتجليـة مسـائل الـدين ودلائله.

٧

لا بد من ضـبط المصـطلحات الوافـدة وفـق منهجية شرعية لتأصيل كثير من مسائلها.

٨

العلاقـة بـين مسـألة النبـوءة وأدلتهـا مـع مسائل الـدين الأخـرى لا تنفـك، وهـذه هـي القراءة الشمولية المتكاملة.

٩

اتصاف النبي ﷺ بالكمال الأخلاقي لينتفي عنه ضده.

١٠

معنى أمية النبي ﷺ أنه لا يقرأ من كتاب ولا يكتب بيديه، ووجه دلالتها على صدق نبوءته ليست مُستقلة، بل هي مع ما أخبر به من أمور هذا الدين.

١١

إن عدم مناقضة ما جاء به النبي ﷺ للعقل والفطرة لا يعني استغناءهما عمّا جاء به.

١٢

الأدلة العقلية برهنت على إمكان النبوءة وصدق النبي ﷺ، وأن العقل وحده لا يكفي، بل لابد من كتاب مُنزل يحكم للناس حياتهم.

١٣

المكذبون بنبوءة النبي ﷺ، لا يملكون أدلة، إنما هي ادعاءات مجردة من البراهين.

١٤

ليس هناك تأثرٌ بين النبوءات السابقة ونبوءة النبي ﷺ بل هي دلالة على وحدة المصدر الإلهي.

١٥

صححت الدراسة بعض الأخطاء المنهجية للاستدلال بالمكتشفات الحديثة، فالاستدلال بها ليس لأن النبي ﷺ سبق بالإخبار بها، بل هي دالة على ربوبية الله من جهة خلق الله لها، وتدل على النبوءة من جهة أن ما جاء به النبي ﷺ لا يتعارض مع الحقائق العلمية.

١٦

دلالة الإخبار بالمغيبات مُشتركة بين الأنبياء.

١٧

اعتراف صناديد كفار قريش أن القرآن ليس من جنس كلام الإنس والبشر لم ينفعهم؛ لأنهم لم يُقروا بنبوءة النبي ﷺ.

١٨

القرآن لم يتحدث عن شخص النبي ﷺ وحياته، بل كانت آيات عِتابه تتجلى للملأ، ليُدرك أن القرآن لم يكن من عنده.

١٩

ورد ذكر اسم النبي محمد ﷺ أربع مرات في القرآن وموسى ١٢٤ مرة. فلو كان من عنده لأكثر من ذكر اسمه، كما هي عادة كثير من المؤلفين.

٢٠

(قل) في أسلوب ونظم القرآن الكريم دالة على أن جهة أخرى تخاطب النبي ﷺ.

٢١

كان النبي ﷺ لا يعلم وقت نزول القرآن، ودوره هو التبليغ عن الله تعالى بكل ما يُوحيه إليه.

٢٢

دلالـة القـرآن عـلى صـدق نبـوءة النبـي ﷺ اشتملت على الدليل والمدلول.

٢٣

مسائل النبوءة ودلائلها تعتمد على الغيب المبني على البراهين القطعية اليقينية النقلية العقلية.

٢٤

الشبهات التي أثارها مُنكرو النبوءات قديمًا ما زالت تثار حديثًا مع تباينٍ في المنطلقات الفكرية.

٢٥

تكذيب النبي ﷺ لم يكن لذاته إنما لما جاء به من حقٍ مُخالفٍ للعادات والتقاليد، إضافة إلى الحسد.

٢٦

الخطاب الليبرالي والعلماني والعقلاني مُضطرب في تقديم حاجات النفس والروح والعقل الفطرية لذا وقع التناقض الصارخ في الأدبيات الغربية.

٢٧

أشارت الدراسة إلى أهم أدلة القرآن لتحريك العقل في التفكير والتأمل والتدبر.

أبـــــــرز التوصيات:

- الاهتمـام بتأصـيل مسـائل الدين وأدلتها.
- الاعتناء بكتب السيرة النبوية ودلائل النبوءة.
- القــراءة الشــاملة والكاملــة لمسائل الدين ودلائله.
- تصـحيح مسـار الاسـتدلال بالمكتشـفات العلميـة عـلى مسائل الدين.
- ترجمـة البحـوث التـي تُعنـى بالتأصـيل لمسـائل العقيـدة وأدلتها.
- عقد الدورات وورش العمل حول الأدلة على أصول الـدين للبرهنـة عــلى صــدق ويقــين المســائل وأدلتها مما لا يحتمل الشك.